أعلام العرب

عبد الرحمن الناصر

بقلم

علي أدهم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٢

مقدمة

عبد الرحمن الناصر هو ثامن أمراء الأندلس من بنى أمية ، وأول من تسمى بهـا بأمير المؤمنين وتلقب بألقـاب الخلافة ، وقد تولى امارة الأندلس والدولة تتخطفها الأخطـار ، ويكاد بناؤها يؤذن بالتصـدع والانهيار ، فاستطاع بجهاده المستمر ، ومثابرته الدائبة أن يطفىء نيران الثورات ، ويستنزل العصـاة من معـاقلهم ، ويقلم أظفـار المتمردين على الطاعة ، والخارجين على القانون ، وقد أدرك ببصيرته النفـاذة، وتفكيره العميق . طبيعة الموقف الذى واجهه ، وعرف الوسائل المجدية فى علاجه ، ورسم الخطط الكفيلة بالنجاح فى تناوله ، وكان عبد الرحمن الناصر واسـع الأفق ، لامع الذكاء ، موفور النشاط ، ناهض العزم ، لايفت فى عضده تلاحق الفتن وتكاثر الاحداث ، ولايهن للشدائد ، ولاتستلينه الظروف القاسية ، بل تشـد من عزمه ، وتستنهض همته .

ولم يكن حكم الاندلس الاسلامية بالامر الهين ، فقد كان هنـاك عوامل انسانية وعوامل طبيعية تجعل هذا الحكم شاقا قد يقصر فى القيام بأعبائه ، واحتمال تبعاته ، رجال من الطراز المألوف ، والنمط العادى ،

ويستلزم رجالا موهوبين فى العقل وبعد الهمة والكفاية، فقد كانت هناك مجموعة بشرية من أصول مختلفة ، وسلالات متنوعة ، يصعب امتزاجها وتكوين وحدة متماسكة منها ، كان هناك عناصر ترجع الى أصول آرية مثل السلتيين والايبريين واللاتينيين واليونانيين وبقايا الوندال والقوط ، وكان هناك من السلالة السامية القرطاجنيون والفينيقيون واليهود والعرب والبربر آخر الغزاة والفاتحين ، وكانت طبيعة البلاد بجبالها وتلالها وأوديتها المنحدرة الضيقة ، وأنهارها العميقة ، وجوها الجاف الشديد الحرارة ، وتعرضها الدائم للأوبئة والمجاعات ، والقحط وقلة الامطار ، مما يغرى بالخروج على الطاعة ، وييسر الاحتماء بالمعاقل والحصون .

وكان أمراء الأندلس من الأمويين حكاما من ذوى القدرة والكفاية ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتفاوتون فى سعة الذرع ، وقوة التصميم والعزم ، ولانزاع فى أن عبد الرحمن الناصر كان من أشدهم قوة ارادة وصرامة عزم ، ولم يكن موهوبا فحسب ، وانما كان عبقريا فذا من طراز عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، ورافع منارها ، وموطد أركانها ، وقد وجدت فيه مشكلة الحكم بالأندلس رجلا يعرف كيف يوثق العقدة ، ويرأب الصدع ، ويذلل العقبات . ويحسم المشكلات .

وقد تولى عبد الرحمن الحكم فى ميعة الشباب ، وامتد به طلق العمر ، فانفسح أمامه مجال العمل ، وتوفرت له أسباب اتمام الخطط المرسومة ، وانجاز

المشروعات التى اعتزم القيام بها ، وبرغم مااتصف به من دماثة الأخلاق ورهافة الحس ورقة الحاشية فانه قبض على زمام الموقف بيد حديدية ، فوقرت مهابته فى النفوس ، وتحامى حوزته الأعداء ، وهادنته الأمم النصرانية والممالك الاسبانية من وراء الدروب والثغور وأذعنت لارادته ، وخطبت وده ، وعملت على مسالمته، والتماس مشورته ، والاستعانة بوساطته ، ووصل الى سدته الملوك من أهل شبه جزيرة أسبانيا المتاخمين لبلاده ، وقبلوا يده ، وسعوا فى مرضاته ، واحتقبوا جوائزه ، وامتطوا مراكبه ، ويعد عهد الناصر الذروة العظيمة لتاريخ المسلمين بالأندلس ، والعصر الذى نضجت فيه الحضارة الاسلامية فى الغرب والشرق على السواء .

ومؤرخو الاندلس والمغرب يتبارون فى الاشادة بحكم الناصر وعهده والتنويه بمواهبه ومزاياه ، فالمؤرخ الاندلسى الكبير ابن حيان يقول «ان ملك الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنه الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم الا وفدت عليه راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى فانه هادنه ، ورغب فى موادعته.

وابن الأبار يقول عنه فى الحلة السيراء « أعظم بنى أمية فى المغرب سلطانا ، وافخمهم فى القديم والحديث شأنا ، واطولهم فى الخلافة ــ بل أطول ملوك الاسلام قبله ــ مدة وزمنا ... وظهر لأول

ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، واقبال دولته ، وخمود نار الفتنة – على اضطرامها بكل جهة – وانقياد العصاة لطاعته، ماتعجز عن تصوره الأوهام ، وتكل فى تحبيره الأقلام» .

ويقول عنه ابن عذارى فى المغرب «كان الناصر رحمه الله ملكا أدال اللواء ، وحسم الأدواء ، وقهر الأعادى ، وعدل فى الحاضر والبادى ، قد أسس الأسوس ، وغرس الغروس واتخذ المصانع والقصور وترك أعلاما باقية الى النفخ فى الصور ، ولما ولى الناصر لدين الله ، اعتز ركن الدين ، واحتمى ذمار المسلمين ، وقام الجهاد على ساق ، وخمدت نار الفتنة والشقاق ، ودخل الناس فى طاعته أفواجا ، واستنفروا الى دعوته أفرادا وأزواجا ، فناهيك من فضل أعطاهم ، وعدل كنفهم به وغطاهم ، وتكرمة أنالهم اياها ومبرة أبدى لهم محياها » .

وكان عبد الرحمن الناصر يصدق فيما يقول ، ويفى بما يعد ، ويعفو عند المقدرة ، وهو مع ذلك لايضع الندى فى موضع السيف ، ولايمنح ثقته من لايستحقها ، ولايشمل بعطفه من هو غير جدير بأن يتفيأ ظل رعايته ، ولم يطغه الانتصار المتوالى ، ولم يفسده اقبال الحظ ، وقد كسب الدنيا دون أن يخسر نفسه ، فلاتقرأ فى أعماله فصلا من فصول مكيافللى فى كتاب الأمير ، فغير غريب أن يستبحر العمران فى عصره ، ويمتد رواق الحضارة ويشعر الناس بالأمن والطمأنينة والعدالة والرخاء ، وهو من أعظم رجال

عصره قاطبة ، واحد ابطال تاريخ الاسلام غير مدافع، وهو جـدير بأن يكون له مكان بين ابطـال كارلايل ، ويضاف الى أسباب نجاحه مساندة الظروف ومساعفة الأقدار ، وما أصدق قول المتنبى

ومانصر الفضل المبين على العـدى
اذا لم يكن فضـــل السعيد الموفق

نشأة عبد الرحمن الناصر وتقلده الامارة

ولد عبد الرحمن الناصر بقرطبة يوم الخميس ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هجرية (٨٩١ ميلادية) ووالده الامير محمد ابن أمير الاندلس عبد الله بن محمد ، وقد قتل أبوه بعد ميلاده بثلاثة أسابيع فى ظروف يحيط بها شىء من الغموض، وكان والده بكر أولاد ابيه ، وخليفته اذا غاب عن حضرته ؛ والمرشح لمكانه ووراثة العرش بعد وفاته ، ويقول ابن الأبار انه كان من أهل العناية بالآثار ، والرواية للأخبار ، والتفنن فى الآداب ، وقد ندبه أبوه فى سنة ٢٧٧ هـ للفصل فى الخلاف الخطير الذى نجم فى أشبيلية وأحوازها بين المولدين والمستعربين من ناحية والاسر المنحدرة من أصول عربية ، وبخاصة أسرتى بنى خلدون وبنى حجاج ، ولم يستطع الامير محمد البت فى الموضوع وادانة أحد الطرفين لعدم وجود الأدلة الكافية ، وقد نجا من أزمة اشتداد هذا الخلاف باعجوبة ، وترشيح والده اياه لولاية العهد ، وايثاره له بما عنده ، عظما على أخيه المطرف ، وأبعدا مابين الاخوين كل البعد ، وقد حدث ذلك غير مرة فى تاريخ الدولة الاموية بالاندلس ، وقابل كل منهما الآخر بالهجران والصد ، ويروى ابن الأبار أن الأمير محمد وجد يوما فارسا من فرسان مطرف فاغتاله وقتله ، ثم فرق من أبيه الأمير عبد الله ،

وحذر سطوته ، ولم يأمن عقابه ، فسار الى السجن وفتح أبوابه وحل من شده ابوه وأوثقه ، وأطلق سراحهم ، وخرج بجماعة من أهل الدعارة والفساد ، ولحق بقلعة ببشتر قاعدة الثائر المغوار عمر بن حفصون ، لائذا بحماه ، ويقول ابن الأبار ان الأمير عبد الله أباه خاطبه بالأمان ، ولامه فى رفق ولين على هذا الخروج على الطاعة والولاء ، فقبل ذلك الأمير محمد ، وعاد الى أهله وذويه ، ولكن أخاه المطرف لم يكف عن افساد مابينه وبين ابيه ، وظل يطوى له العداوة والبغضاء ، ويعمل على ازالته من طريقه ، وزعم انه لايزال على صلة بالثائر ابن حفصون ، وانه يداخله ويداهنه للقيام على أبيه . وترك هذا التحريض أثره فى نفس الأمير عبد الله، وقوى هذا التأثير حتى لم ير والده ندحة عن اعتقاله فى احدى حجرات قصره ، ريثما يختبر أمره ، ويبحث قضيته ، ولم يصله فى خلال ذلك مايؤكد الشبهة ، ويثبت التهمة ، واتفق فى أثناء ذلك أن خرج الامير عبد الله فى احدى غزواته ، فاغتنم المطرف هذه الفرصة ؛ واقتحم على أخيه محبسه واجهز عليه ، ولما علم الأمير عبد الله بذلك هم بقتله ، وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ ولكنه لم يعدم من كسر سورته ، وهدأ وقدة غضبه ، وحدث بعد ذلك فى سنة ٢٨٢ هـ أن بعث الأمير عبدالله ابنه المطرف بالصائفة ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، ففتك المطرف بالوزير بمقربة من اشبيلية لعداوة كانت بينهما ، واكبر أبوه الامر ، وكان اعتداؤه على أخيه الامير محمد لايزال يحز فى نفس الأمير عبد الله . وقد دفعه ذلك الى السطو بالمطرف وقتله شر قتلة ثأر فيها منه بأخيه وبالوزير .

ووالدة عبد الرحمن مارية من سبى الفرنجة وهى مسيحية غسقونية وتسميها الرواية العربية مزنة .

ويبدو أن الامير عبد الله ، ادرك فى نهاية الأمر أن ابنه محمدا قد قتل مظلوما وأن أكثر مابلغه عنه لميكن له نصيب من الحقيقة ، ويصف لنا الفقيه أبو محمد بن حزم ـ وهوالعالم المعروف بغزارة العلم وسعة المعرفة بالسير والأخبار مع الجرأة والصراحة فى ابداء الرأى ـ جانبا من أخلاق الامير عبد الله بقوله « انه كان قتالا تهون عليه الدماء ، ومع كثرة اقباله على الخيرات وترك المنكرات ، فانه احتال على أخيه (الامير) المنذر على ايثاره له ، وواطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصد به ، وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون ، ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد ، قتل محمدا والد الناصر لدين الله ، وقتل أخاه المطرف ، ثم قتل اخوين له معا أيضا ، قتل هشاما منهما بالسيف والقاسم بالسم الى غير ذلك» وسواء صحت رواية مشاركته فى قتل ابنه محمد أو لم تصح فان الظاهر أن مصرع الأمير محمد قد نال منه ، وترك فى نفسه ندوبا ، واستشعر الكثير من تأنيب الضمير ، فدفعه ذلك كله الى أن يضم الطفل اليتيم فى حياطته ، ويشمله بعطفه ورعايته ، ويضمه الى قصره ، ويشرف بنفسه على تربيته وتعليمه وتثقيفه ، وماكاد هذا الطفل يبلغ أشده حتى تكشفت مواهبه ، فأبدى فى مستهل عمره امتيازا وتفوقا ، وتجلت براعته فى النحو والشعر والتاريخ ، وأظهر استعدادا ملحوظا فى فنون الحرب والفروسية بعد أن حفظ القرآن ودرس السنة ، فازداد اقبال جده عليه ، وايثاره له ، وأخذ فى ترشيحه لمختلف المهمات ، وأقعده فى بعض الايام والاعياد وشتى المناسبات مقعد نفسه لتسليم الجند عليه ، وليألفوا طاعته ، ولم يكن هناك قانون لوراثة الملك واجب الطاعة مرعى الحرمة ، وانما كان المتبع فى المعتاد حينما يخلو العرش أن يعتليه من الابناء

الأكبر سنا أو الاكثر كفاية من افراد الاسرة المالكة ، فلما توفى الامير عبد الله فى ليلة الخميس من مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هجرية ودفن فى قصره بقرطبة ولى عبد الرحمن فى اليوم نفسه الذى توفى فيه جده ، وقد تهيأ اجلاسه على العرش بغير منازعة ، وقيل بان جده رمى بخاتمه اليه ابانة منه لاستخلافه ، وكان أول من بايعه أعمامه أولاد الامير عبد الله ، وتلاهم اخوة جده ، وتكلم واحد منهم حينما بايعه مثنيا عليه بكل جميل . ولم يتريث أحد من أعمامه أو سائر أقاربه فى مبايعته ولعل السبب فى ذلك من ناحية ان عبد الرحمن كان مرضى السيرة ، محمود العشرة ، قد عرف كيف يكسب ود الجميع ، ويوحى الى كل من اتصل به الثقة بمواهبه ، والاعجاب بسلوكه ، ومن ناحية أخرى أن أحوال الاندلس الداخلية والخارجية حين وفاة جده كانت على غير مايرام ، وكان النهوض بأعباء الحكم محفوفا بالمكاره ، حافلا بالصعاب ، فقد تكاثرت الفتوق والثورات ، واستفحل خطر الخارجين على الطاعة ، والمنتهزين فى مختلف أنحاء الأندلس، وكان من الواضح أن مصير الامارة الاندلسية معرض للزوال ان لم يتقدم لانقاذها رجل قوى العزم ، راجح العقل ، ميمون النقيبة ، وبرغم أن عبد الرحمن لم يكن قد سبق له أن قاد جيشا مظفرا ، أو أخمد ثورة قائمة ، أو فرج أزمة سياسية مستعصية الا أن الجميع برغم ذلك بايعوه مبايعة رضى واغتباط ، واستبشروا بمقدمه ، واعتلاء همته ، ورجوا ماتحقق لهم بعد ذلك من رعايتهم والدفاع عن حرماتهم ، وصلاح الأحوال ، وتجرده لاستئصال الفتنة والتمهيد للطاعة والنظام ، وقد جلس فى محراب المجلس الكامل بقصر قرطبة وتولى أخذ البيعة له من الخاصة والعامة بدر بن أحمد

مولاه ، وموسى بن محمد بن حدير صاحب المدينة ، وفى يوم ولايته يقول أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد من قصيدة ٠

بدا الهلال جديدا والملك غض جديد

يانعمة الله زيدى ان كان فيك مزيد

ان كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

وكان بنو أمية فى الأندلس قد حرصوا على ابقاء اسم الوزير ، ولكنهم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزيرا ، فجعلوا لحساب المال وزيرا ، وللترسيل وزيرا ، وللنظر فى حوائج المظلومين وزيرا ٠ وللنظر فى أحوال الثغور وزيرا ، وكان هؤلاء الوزراء ينفذون أمر السلطان كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الامير واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرته للأمير فى كل وقت وخصوه باسم الحاجب ، أى أن وظيفة الحاجب تعادل فى المصطلح الحديث وظيفة رئيس مجلس الوزراء ، وقد شرع عبد الرحمن يوم مبايعته فى تأليف الوزارة الجديدة ، فاختار مولاه بدرا للحجابة مع خطة الخيل الى ماكان اليه من خطة البريد ، وولى موسى ابن محمد الوزارة الى ماكان اليه من خطة المدينة ، وهى بمثابة محافظ المدينة ، وأقر أحمد بن محمد بن أبى عبدة على القيادة ، وكان يعد من أقدر قادة الجيوش فى الاندلس، وأقر قاسم بن وليد الكلبى على الشرطة العليا ، وكان مع ذلك خازنا للمال ، فصرف الخزانة عنه وولاها عبد الملك بن جهور ، وولى الخزانة أيضا محمد بن عبيدة بن مبشر ومحمد ابن عبد الله بن أبى عبدة ، واختار ثلاثة وزراء لخطة العرض وهم عمر بن محمد بن غانم ، وعبد الرحمن بن عبد الله

الزجالى ، ومحمد بن سليمان بن وانسوس ، وعهد بكثيرمن المناصب العالية الى رجـال سبق لهم أن مارسـوا مختلف الاعمال الادارية وأظهروا فيها كفاية وقدرة ، وعرفوا بالسيرة الحسنة والسمعة الطيبة ، وعهد اليهم بالكتابة ببيعته الى الكور والاطراف ، ويصف لنا ابن عذارى هذا الشاب الذى ولى امارة الأندلس بقوله « أبيض ربعة أشهل حسن الجسـم جميل بهى يخضب بالسواد» ، وقد جرى فى عروقه الدم الاسبانى والدم العربى ، وتضافرت وسامة طلعته ، وحسن سمعته ، وكريم أخلاقه ، وقوة ادراكه ، على أن تجعل منـه أميرا عظيما يحبه شعبه ، ويخضع له أعداؤه ومنافسوه ، واذا كان ظهور الابطال ونوادر الرجـال فى التـاريخ نتيجة للحاجة الملحة ، والضرورة القاهرة ، فان الظروف الحرجة ، والأزمات الحازبة ، والاخطار المحـدقة بالدولة الاموية فى الاندلس كانت تستلزم ظهور مثل هذا «المخلص» ، وكأنمـا أوحت الأقدار الى جده عبد الله باختيـاره لولاية الحكم دون اعمامه من أولاد الامير عبد الله وأعمام أبيه وسائر أفراد بنى أمية ، لينقذ الموقف المتداعى ، ويخرج الامارة الأندلسية من المأزق الذى تورطت فيه .

عهد الثورات
والعصاة المتمردين

كان عبد الرحمن الناصر ثامن الامراء الذين تولوا عرش الأندلس من البيت الاموى ، ولم تخل عهود الأمراء الذين سبقوه من ثورات واضطرابات ، وكان الحكم فى الاندلس الاسلامية يستلزم اليقظة المستمرة والجهاد الدائم لدفع غوائل الثورات والانقلابات والمحافظة على النظام والاستقرار، ولكن الفترة الممتدة من سنة ٢٣٨ هجرية الى سنة ٣٠٠ هجرية والتى شملت حكم الامير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، والأمير المنذر ، والأمير عبد الله ، كانت بوجه خاص من أشد الفترات اضطرابا وأحفلها بالثورات ، فقد تفاقمت فيها الخلافات بين العناصر المختلفة التى كانت تتكون منها معظم سكان الاندلس الاسلامية ، وكثر عدد الثائرين المتمردين والخارجين على الطاعة والنظام من ذوى الشخصيات القوية والشجاعة النادرة سواء من العرب أو البربر أو المستعربين أو المولدين ، وقد عزا بعض المؤرخين ذلك الى ضعف الولاة الذين تولوا الامارة فى تلك الفترة . ولكن الواقع اننا نظلم هؤلاء الولاة اذا رميناهم بالضعف والتقصير ، فانهم لم يقصروا فى الجهاد ، ولم يدخروا جهداً فى العمل على اخماد الثورات واخضاع المتمردين ، ولكن الأحداث المتلاحقة كانت من وراء قدرتهم ، وفوق مستوى

همتهم ، وبرغم ما بذلوا من جهد وما أنفقوا من وقت فى معالجة الأزمات المتلاحقة فانهم لم يستطيعوا التغلب عليها ، مما جعل عبد الرحمن يرث تركة مثقلة بالديون ، وموقفا يكاد يغرى باليأس .

وقد كان المسلمون فى الاندلس يعاملون إخوانهم النصارى خير معاملة ، وقد تركوا لهم حرية العبادة ، ولم يتدخلوا فى شيء من عقائدهم ، فكانوا يتجرون ، ويجمعون الثروات ، ويقتنون الضياع ، ويعيشون فى رغد كما يعيش أضرابهم من المسلمين ، وعملوا على الاستفادة من سماحة الحكام المسلمين ولينهم وسعة أفقهم ، وبطبيعة الحال كان هناك بين المسيحيين بعض الطموحين المتحمسين الذين ساءهم خضوع الاندلس للمسلمين ، وعادت بهم الذكريات الى ما قبل دخول العرب الى أسبانيا ، والى ما كانوا يستمتعون به من حرية كاملة وسيطرة تامة ، وحدث فى أواخر حكم الامير عبد الرحمن الاوسط ان عددا قليلا من النصارى بقرطبة التهبت نفوسهم غيرة وتعصبا لدينهم ، وكان هذا التعصب الطارىء مقصورا على نصارى قرطبة ، أما جمهرة النصارى بالأندلس فلم تصبهم هذه الغيرة العنيفة ، وكان كثيرون من المسيحيين يعملون فى الجيش ، وظفر بعضهم بمناصب عالية فى الدولة ، وأقبل فريق كبير منهم على دراسة الادب العربى ، وشغفوا به ، وأعرضوا عن الادب اللاتينى مما بعث بعض القساوسة على أن ينعى عليهم ذلك ، ويلومهم لتركهم دراسة الأناجيل وأخبار الرسل ، ولكن هذا الأخذ بالثقافة العربية الاسلامية لم يخمد فيهم مع ذلك النزعة القومية ، وكانوا يغبطون اخوانهم فى المناطق الشمالية من أسبانيا الذين يحكمهم أمراء مسيحيون من بنى جلدتهم ،

وكانوا من الحين الى الحين يتعرضون لمواقف تثير حساسيتهم وكبرياءهم القومية ، وكان القساوسة قد كونوا أفكارا خاطئة عن الدين الاسلامي ونبى المسلمين وكانوا يعتمدون فى تقديرهم للاسلام وصاحب الرسالة على المراجع اللاتينية التى لاتقدم لهم معلومات سليمة خالية من الاخطاء والتحريف والزراية بالاسلام ونبى المسلمين ، كما أن ميل العرب الى الاستمتاع بالحياة والأخذ بنصيب من متعها المباحة كان يثير النقمة فى نفوس القساوسة النزاعين الى الزهد والتخلى عن لذات الحياة ، وكانت الاكثرية المستنيرة من المسلمين تعرف لرجال الدين حرمتهم سواء أكانوا من المسلمين أم من المسيحيين ، ولكن بعض العامة كشأنهم فى مختلف البيئات كانوا يميلون فى بعض الاوقات الىالاستخفاف بالقساوسة ، وقد أدى ذلك فى العاصمة الى ظهور حركة الاستشهاد فى آخر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وعمل على اثارة هذه الحركة فى نفوس المسيحيين فى قرطبة القس البجيوس ـ وهو من أسرة مسيحية قديمة فى قرطبة عرفت بشدة استمساكها بالدين المسيحى ـ ورجل آخر من أعيان المسيحيين يدعى الفارو ، وكان طالبو الاستشهاد يلجأون الى أسلوب عجيب فى التماسه ، وهو المعالنة بالطعن فى الديانة الاسلامية ، وتوجيه السباب المقذع الى صاحب الرسالة ، واستمرت هذه الحركة فى قرطبة بضع سنوات ، ولم تهدأ الا بعد أن تدخل بعض كبار رجال الدين المسيحى فى عهد الامير محمد ، وكثر شهداؤها ، ومهما يكن من أمر هذه الحركة فانها تركت آثارها فى نفوس المسيحيين والمسلمين بوجه عام ، وكانت من أسباب الفتن والاضطرابات التى ملأت ذلك العهد .

ومن أشهر الثائرين فى تلك الفترة ، وأشدهم خطورة، وأطولهم عهداً ، وأكثرهم اضراراً بهيبة الدولة الثائر الشهير عمر بن حفصون ، ويقول عنه المؤرخ الاندلسى ابن حيان «هو كبير الثوار بالاندلس ، ونسبه عمر بن حفصون المعروف بحفص بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان بن فرغلوش بن أذفونش من مسالمة الذمة من كورة تاكرنا من عمل رندة ، وكان الذى أسلم منهم جعفر بن شتيم .. وكان له من الولد الذكور عمر وعبد الرحمن ، فولد عمر بن جعفر حفصونا وولد حفصون عمر هذا الثائر الملعون .. وبلغ فى الشقاق والفتن منزلة لم يبلغها ثائر بالأندلس » ويقول المؤرخ دوزى انه من أسرة عريقة ترجع الى أصل قوطى ، وان جدهم جعفرا اعتنق الاسلام فى عهد الحكم الاول ، ولكن ذريته كانوا مسلمين فى الظاهر مع احتفاظهم بالولاء للمسيحية فى أعماق نفوسهم ، وقد استطاع حفص والد عمر باجتهاده وحسن تدبيره أن يجمع ثروة ضخمة ، ولذا رأى جيرانه تشريفه بجعل اسمه «حفصون» بدلا من حفص ، ولم يكن مايكدر صفو حياة الرجل سوى سوء أخلاق ابنه عمر ، فقد عجز عن أن يفرض عليه السيطرة الابوية وسبب ذلك له قلقا دائما ، وكان الشاب عمر مدلا بنفسه ، تياها كثير التعاظم ، ميالا الى المشاغبة ، وكانت تكفى اشارة عارضة أو كلمة عابرة لاثارة غضبه واستفزازه الى العدوان ، وطالما عاد الى منزل والده محمولا مثقلا بالكدمات والجروح ، ومثل هذا الخلق الجامح لابد أن يفضى الى ارتكاب جريمة القتل ، وحدث ذات يوم أن ثار خلاف بينه وبين أحد جيرانه لم يكن له مايسوغه، وأسفر عن قتله لذلك الجار ، واضطر والده انقاذا لحياته من القصاص أن يفر به الى المنطقة الجبلية القريبة من مدينة رنده عند سفح جبل ببشتر تاركا الضيعة التى كانت أسرته

مقيمة بها ، وفي تلك المنطقة الموحشة ألف الشـاب المتمرد حياة الغابات المتكاثفة ومخارم الجبال المتأبدة ، وقد أغراه ذلك بالاندماج فى زمرة اللصوص وقطاع الطرق والمغـامرين الفتاك ، ووقع فى يد حاكم المنطقة ، وعوقب بالجلد ، ولمـا حاول العودة الى منزل والده أبى الوالد ان يلوذ بحماه هذا الابن العاق السيىء السيرة النزاع الى الاجرام ، ولما ضاقت به سبل الحياة فى الاندلس أخذ طريقه الى الشاطىء وابحر فى احدى السفن الى الشاطىء الافريقى ، وبعد أن عانى حينا من الزمن حياة التشرد أفضى به التطواف الى مدينة تاهرت ، وهناك عمل صبيا عند حائك من أهل ريه وكان له به معرفة سابقة ، وفى ذات يوم بينما كان عمر مقبلا على عمله دخل الى الحانوت الذى يعمل به رجل متقدم فى السن ، وبعد أن دعاه الحائك الى الجلوس دخل الرجل فى مناقشة معه اشـترك فيهـا عمر ، فسأل الرجل المسن الحائك عن عمر ، فأجابه الحائك انه من ريه ، وجاء ليتعلم الحياكة «فسأله الرجل» متى تركت ريه ؟ فأجاب عمر «منذ أربعين يوما»

فسأله قائلا «أتعرف جبل ببشتر ؟»

فأجاب عمر «منزل أبى فى سفح هذا الجبل»

فقال الرجل «هل قامت ثورة فى تلك الناحية ؟»

فأجاب عمر «لم يحدث ذلك» .

فقال الرجل وكأنه يحدث نفسه «عما قليل ! أتعرف فى جوار ذلك الجبل عمر بن حفصون ؟»

فامتقع وجه عمر ولزم الصمت ، وكان الرجل المسن من أصل اسبانى ، وحينما سمع عن مغامرات عمر وهو فى ناحية ببشتر اعتقد أن هذا الشاب المغامر سيكون من كبار

الزعماء وأدرك الرجل من تغير وجه عمر ولزومه الصمت أنه يخاطب ابن حفصون نفسه ، فقال له «أتظن انك تطارد الفقر بابرة الحائك ؟ عد الى بلدك واحمل السيف بدلا من ذلك فانك ستكون مصدر رعب للأمويين وستتولى حكم أمة عظيمة» .

وتركت هذه الكلمات أثرها فى نفس عمر ، وداخله الخوف من أن اسمه قد يعرف فى تاهرت ويصل الى مسامع الحاكم فيعمل على تسليمه لحكومة قرطبة التى كانت تاهرت موالية لها ، وابتدر العودة الى الاندلس ، وبدأ تكوين عصابة فى جبل ببشتر وكان ذلك فى سنة ٨٨٠ ميلادية (٢٦٧هجرية) وكان فى الجبل بقايا حصن من العهد الرومانى ، ولم يجد عمر صعوبة فى ترميم بقايا هذا الحصن ، ولم يكن هناك مكان أكثر ملاءمة وأشد منه مناعة لايواء عصابة من اللصوص أو الثائرين المتمردين على النظام ، فقد كان هذا الحصن قائما على صخرة عالية شديدة الإنحدار يمتنع الوصول اليها من ناحية الشرق ومن ناحية الجنوب ، وكان من مزايا هذا الحصن المنيع أنه على مقربة من السهل المنبسط حتى قرطبة والذى تستطيع فيه عصابة ابن حفصون أن تشن غارات لسرقة الماشية ، وفرض الضرائب على المزارعين فى الأنحاء النائية المنعزلة ، ولما قوى شأنه وكثر أنصاره وأتباعه صار يتجه بغاراته الى أبواب المدن ويقوم بحركات هجومية بارعة جعلت حاكم منطقة ريه يقدم على مهاجمته بمن معه من الجند ، ولكن ابن حفصون تغلب عليه ، وعزا أمير قرطبة ــ محمد بن عبد الرحمن الاوسط ــ ذلك الى ضعف الحاكم فعزله وعين حاكما جديدا لكورة ريه ، ولكن الحاكم الجديد لم يستطع التغلب على ابن حفصون فهادنه ، ولكن هذه

الهدنة لم يطل اجلها ، وعزل الحاكم الجديد ، وعاد ابن حفصون الى ماكان عليه من الشر وظل يقاوم مدة سنتين أو ثلاث سنوات ، وفى سنة ٢٧٠ هجرية (٨٨٣م) غزا القائد هاشم بن عبد العزيز كورة ريه واستنزل عمر بن حفصون من قلعته ، وقدم به قرطبة ، فاحتفى به الامير محمد وأوسع له فى الاكرام ، وضمه مع رجاله الى جيشه ، ولم ير عمر ندحة عن قبول ذلك ، وحينما قاد هاشم حملة لاخضاع محمد بن لب زعيم بنى قسى فى الثغر الأعلى صحب معه ابن حفصون ، واظهر عمر ضروبا من الشجاعة فى الهجوم الذى شنه القائد وعاد معه الى قرطبة ، ولم يسترح ابن حفصون بعد ذلك لخدمة الأمير محمد ، وتاق الى حياة المغامرة التى ألفها ، فهرب من قرطبة مع رجاله ولجأ الى جبل ببشتر سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) ووجه اهتمام الى استرداد قلعته ،وكان القائد هاشم الذى عرف أهميتها من الناحية الحربية قد شحنها بالمقاتلة ، وزاد فى مناعة ابراجها ، ولكن ابن حفصون لم ييأس من الاستيلاء عليها ، وفاجأ حراسها بهجوم مفاجىء مكنه من استردادها ، وأخذ فى اثارة شعور الأنفة فى نفوس مواطنيه من المسلمين والمسيحيين قائلا لهم «(١) طالما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب ، واستعبدتكم ، وانما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم » وكان هذا النداء يجد صدى فى النفوس . ويقول ابن عذارى : «كان ابن حفصون لايورد هذا على احد الا اجابه وشكره ... وكان اتباعه شطار الناس وشرارهم، فكان يمنيهم بفتح البلاد وغنائم الأموال ، وكان مع ذلك متحببا لأصحابه متواضعا لألافه ، وكان مع شرهه وفسقه

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ١٧٢ .

شديد الغيرة ، حافظا للحرمة ، فكان ذلك مما يميل النفوس اليه ، وكانت المرأة فى أيامه تجىء بالمال والمتاع من بلد الى بلد منفردة لا يعترضها أحد من خلق الله ، وكانت عقوبته السيف ، يصدق المرأة والرجل والصبى أو من كان على من كان ، لا يطلب على ذلك شاهدا أكثر من الشكوى ، وكان يأخذ الحق من ابنه ، ويبر الرجال ، ويكرم الشجعان ، واذا قدر عليهم عفا عنهم ، وكان يسورهم باسورة ذهب اذا اختصلوا ، فكانت هذه الأشياء كلها عونا له » وامتدت غاراته الى قبرة والبيرة ، وأحواز جيان ، ومر ما يقرب من عامين قبل أن يوجه الأمير محمد جيشا بقيادة ابنه وولى عهده المنذر لمهاجمة هذا الثائر الذى أقام نفسه مدافعا عن المولدين والمستعربين والمضطهدين فى زعمه ، والذين يسىء العرب والبربر معاملتهم ، وهاجم المنذر حصن الحامة ، وكان صاحبه من أنصار ابن حفصون ، فأسرع الى نجدته ، واستمر الحصار شهرين تناقصت خلالهما المؤونة المدخرة ، واضطر المدافعون عن الحصن الى القيام بهجوم على الجيش المحاصر ، ولكنهم لم ينجحوا فى هذا الهجوم ، وأصيب ابن حفصون بجروح كثيرة وقطعت يده ولاذ بحصنه بعد أن فقد عددا من رجاله ، ولكن الحظ أسعفه ، فقد مات فى ذلك الوقت الامير محمد ، واضطر المنذر الى العودة لقرطبة وتمت له البيعة فى اليوم الثانى من وصوله .

ولما بلغ ابن حفصون نبأ وفاة الأمير محمد فى سنة ٢٧٣ هـ راسل الحصون التى بينه وبين الساحل كلها فأجابته ، وطاعت له ، وجمع أموالا كثيرة قوى بها شأنه ولكنه وجد فى الأمير المنذر الذى ارتقى العرش ندا قويا ، فقد كان المنذر أميرا ناهض العزم ، قوى الشكيمة ، شجاعا

مقداما ، ويعتقد أولياء بنى أمية انه لو مد له فى العمر لاستطاع اخماد الثورات القائمة واخضاع العصاة المتمردين فى المناطق الجنوبية ، ومهما يكن من الأمر فانه فى سنة ٢٧٤ هـ (٩٨٤ م) خرج من قرطبة بجيوشه لمقاتلة عمر بن حفصون ، وافتتح حصون برية ، ثم توجه الى قلعته فى ببشتر وحاصره بها ، وأفسد ما حواليه ، وضيق عليه ، ثم انتقل عنه الى ارشيذونه فأقام عليها محاصرا ومضيقا على أهلها ، الى أن نبذوا عيشونا — وهو من حلفاء ابن حفصون — وأسلموه ، فدخلها الأمير المنذر ، وقبض على عيشون واصحابه ، وافتتح حصون بنى مطروح وعون وطالوت بجبل باغة وبعث بهم الى قرطبة وأمر بقتلهم مع عيشون ، وفى العام التالى من ولايته خرج فى عديد أكثر وقصد ببشتر وقاتل ابن حفصون أشد قتال واستولى على السهول والأوعار المحيطة بقلعته ، ولما رأى ابن حفصون ان الأمير المنذر قد أخذ بمخنقه ، وسد أفواه طرقه لجأ الى المخادعة ، وأظهر الميل الى الطاعة ، على أن يكون عند الأمير من خاصة جنده ، وأن يقيم بقرطبة بأهله وولده ، فأجابه الأمير المنذر الى مطلبه ، وسأل الأمير مائة بغل يحمل عليها متاعه وعياله ، فأمر الامير البغال أن تحمل اليه ، وتوضع بين يديه ، وجعل عليها عشرة من العرفاء ومائة وخمسين فارسا اتماما للاكرام والانعام ، فأرسلهم ابن حفصون الى ببشتر حيث أهله وولده ، واغتنم ابن حفصون فرصة ابتعاد جيش الامير عن ببشتر واقبال الليل وخف هاربا اليها مسرعا واستولى على البغال المرسلة اليها ، واغضب ذلك الامير المنذر فأقسم أن يقصده ولا يقبل منه او يلقى بيده اليه ، واستجمع قوته لحصار ببشتر ، وشدد الحصار ، ولكن الموت لم يمهله ، وكان الأمير عبد الله حينذاك بقرطبة ، فأبلغه الخصيان خبر

موت أخيه فحضر الى ببشتر ، وقفل الى قرطبة بأخيه المنذر ميتا ، واستتم بهـا بيعته ، ودفن أخاه ، وكانت الجنـود المحاصرة لابن حفصـون قد ملت الحصـار فلما بلغهم موت الأمير المنذر تفرق شملهم فى أثناء العودة الى قرطبة ، فلما وصل الامير عبد الله الى العاصمة لم يكن معه سوى اربعين فارسا .

واستغل زعماء القبائل العربية التصدع فى بناء الدولة الأموية الذى أحدثتـه ثورة ابن حفصـون ونزعوا الى الاستقلال ، ورأى الأمير عبد الله أن ثورة هؤلاء الزعماء أشد خطرا على الدولة من تمرد ابن حفصـون ، وخشى الأمير عبد الله العزلة ، وقدر أن عليه أن يختار أحـد الفريقين ، فريق المولدين والمستعربين أو فريق زعماء العرب ، ورأى التقرب من زعماء المولدين والمستعربين ، وقبل أن يحكم ابن حفصون منطقة ريه ، على شريطة أن يعترف له بسـلطته عليها ، وقبل ابن حفصون هذه المساومة ، وارسـل ابنـه وبعض رجال حاشيته الى قرطبة ليكون ذلك دليـلا على اخلاصه فى ولائه ، وحاول الأمير عبد الله من ناحيتـه تقوية صلته بابن حفصون فأكرم وفادتهم وأثقلهم بالهدايا ، ولـكن بعد مضى أشهر لم يستطع ابن حفصون كبح جماح جنوده ومنعهم من الاغارة على القرى والمزارع حتى أبواب مدينـة اسـتجة واشـونة ، بل اقتربت غاراتهم من أبواب قرطبـة نفسها ، وحينما تغلب رجـاله على الجيش الذى أرسـله عبد الله لرد تلك الغارات أعلن العصيان وطرد عمـال الأمير ولم تنجح سياسة الامير عبد الله فى التقرب من المستعربين والمولدين ، ووسع ذلك شقة الخلاف بينه وبين قومه العرب، ولم يكن من المنتظر أن يدينوا بالولاء لامير قد أصبح العوبة فى يد خصومهم من المسـتعربين والمولدين ، وكان العـرب

المقيمون في منطقة البيرة أكثرهم من سلالة جند دمشق ، وكانوا يؤثرون الاقامة في أرباض المدينة وضواحيها ، ويشمخون بأنوفهم على المولدين والمستعربين ، ولذلك اثاروا البغضاء في نفوسهم ، وكثر الاحتكاك بين الفريقين ، وعند ابتداء ولاية الامير عبد الله كان الصراع بين الفريقين قد اشتد ، وخرج أشراف العرب على الأمير عبد الله ، واختاروا لهم زعيما من القيسية وهو يحيى بن صقالة الذى كان من أشجع رجال عصره ، واحتل العرب موقعا حصينا في شمال شرقي غرناطة ، فقام المولدون والمستعمربون بحصارهم في ذلك الحصن ، وقتلوا عددا من المدافعين عنه ، واستولوا عليه في النهاية ، واضطر ابن صقالة الى الهرب ، ولما وجد نفسه في قلة من الاتباع ألقى السلاح ، وعقد صلحا مع المولدين والمستعربين ، واشتبك بعد ذلك في مؤامرة ، وقتله المولدون والمستعربون في ربيع سنة ٨٩٩ م (٢٧٦ هـ) وكان سوار بن حمدون القيسى من أصحاب ابن صقالة ، فرأسه العرب عليهم بعد مقتله ، واشتد به أمر العرب ، وكثر أتباعه وقام مطالبا بثأر صاحبه ، وكان شجاعا محاربا كما يقول (١) ابن الابار ، واعتز العرب بمكانه ، وقصد حصنا اجتمع فيه المولدون والمستعربون وهو حصن منت شاقر فنازلهم بالعرب حتى قهرهم ، وأخرج منه زعيمهم نابلا ، وكان نابل قد انتزع هذا الحصن من صقالة فاسترده سوار ، وافتتح بعد ذلك حصونا أخرى من حصون المولدين والمستعربين وقتل من ظفر به منهم وغنم أموالهم ، ولقيه جعد بن عبد الغافر ــ عامل الأمير عبد الله ــ فهزمه سوار وقتل من أصحابه نحوا من سبعة آلاف ، وأسرجعدا ، ومن عليه وأطلقه وأبلغه مأمنه .

---

(١) الجزء الاول من الحلة السيراء صفحة ١٤٨ .

وغلظ أمر سوار واستبق الى حصن غرناطة بالقرب من كورة البيرة ، واتصلت عرب النواحى الى حدود قلعة رباح وغيرها ، وصاروا معه البا على المولدين والمستعربين وعظم شأن سوار ، وعلت همته ، وأملته العرب ، وأكثر من الفخار بنفسه ، وحدثت معركة بينه وبين ابن حفصون أوقع فيها بأصحابه ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وتعرف هذه المعركة « بوقيعة المدينة » ، وقد أشار الى هذه الوقيعة سعيد بن جودى السعدى صاحب سوار بقوله فى قصيدة له :

لقد سل سوار عليكم مهندا
يجذ به الهامات جذ المفاصل

به قتل الله الذين تحزبوا
علينا وكانوا أهل افك وباطل

سما لبنى (١) الحمراء اذ حان حينهم
بجمع كمثل الطود أرعن رافل

لقيتم لنا ململمومة مستجيرة
تجيد ضراب السهم تحت العوامل

بها من بنى عدنان فتيان غارة
ومن آل قحطان كمثل الأجادل

يقودهم ليث هزبر ضبارم
محش حروب ماجد غير خامل

وكان لكل فريق من الفريقين المتصارعين شاعر ينافح عنه ويتغنى بمواقفه ويشيد بالأبطال من رجاله ، وكان شاعر

(١) كان العرب يسمون أهل منطقة رية بالحمراء لانهم من أصل اسبانى .

المولدين والمستعربين وهم من النصارى هو عبد الرحمن ابن أحمد المعروف بالعبلى وكان يقابله فى الجانب العربى محمد بن سعيد بن مخارق الاسدى ، وحينما نظم العبلى قصيدته فى هزيمة العرب التى أولها :

قد انقصفت قناتهم وذلوا
وضعضع ركن عزهم الأذل

أجابه يحيى ابن أخى يحيى بن صقالة من قصيدة طويلة يمدح فيه سوارا ويذكر وقيعة البيرة ويناقض العبلى :

لسوار على الأعداء سيف
أباد ذوى الغواية فاضمحلوا
سقاهم كأس حتف بعد حتف
بها نهل العبيد معا وعلوا
قتلت بواحد سوار ألفا
والفهم بواحدنا يقل
وأكثر قتلنا لهم حلال
بما ارتكبوه ظلما واستحلوا
فأوردنا رقابهم سيوفا
تشب النار فيها اذ تسل
ورثنا العز عن آباء صدق
وارثكم بنى العبدان ذل

وعامل سوار المولدين والمسالمة من المستعمرين معاملة شديدة قاسية فى كور جيان والبيرة وريه ، وقد دفعتهم هذه الشدة الى الانضمام الى عمر بن حفصون ، وآل الأمر الى أن

قتل سوار فى احدى المعارك ، وقاتله جفص بن المرة قائد عمر ابن حفصون ، ولما قتل سوار ذلت العرب بمقتله ، وكل حدها بما نزل فيه ، على حد تعبير (١) ابن الابار ، ونصبت العرب لرياستها بعده سعيد بن سليمان بن جودى صاحبه ، وعلقت آمالها به ، فلم يسد مكانه ، ولا بلغ مداه فى السياسة ، وكان شجاعا بطلا وفارسا مقداما ، وشاعرا محسنا ، وهابه ابن حفصون هيبة لم يهبها أحدا ممن مارسه ، ودعاه فى بعض أيامهم الى المبارزة ، فلم يجبه ابن حفصون اليها وحاد عنه وواجهه يوما ، فألقى عليه ذراعه واجتذبه الى الأرض ، فما نجاه منه الا أصحابه الذين انقضوا على سعيد فتنقذوا عمر من يده ، وقد قتل سعيد غيلة بأيدى بعض أصحابه فى سنة ٢٨٤ هـ، وقيل ان من أقوى أسباب قتله أبياتا من الشعر قالها فى غمص أمراء بنى مروان منها :

يا بنى مروان جدوا فى الهرب
نجم الثائر من وادى القصب

يا بنى مروان خلوا ملكنا
انما الملك لأبناء العرب

وفى رواية ابن حيان ان صدر البيت الأول « قل لعبدالله يجدد فى الهرب وأضاف اليها بيتا ثالثا :

قربوا الورد المحلى بالذهب
واسرجوه ان نجمى قد غلب

ورثاه الأسدى شاعر العرب فى ذلك الأوان ، وقال فيه مقدم به معافى القبرى يرثيه :

(١) الحلة السيراء لابن الابار الجزء الاول صفحة ١٥٥ .

من ذا الذى يطعم أو يكسو
وقد جوى حلف الندى رمس
لا اخضرت الأرض ولا أوراق
العود ولا أشرقت الشمس
بعد ابن جودى الذى لن ترى
اكرم منه الجن والأنس
دموع عينى فى سبيل الأسى
على سعيد أبدا حبس

وقام بأمر العرب بعده محمد بن أضحى الهمدانى صاحب حصن الحمة ، وناصب ابن حفصون الحرب ، وظفر به ابن حفصون فى احدى الواقعات ، وصار عنده أسيرا ، ففداه العرب منه بمال جسيم ، وخضع بعد ذلك لطاعة الأمير .

وفى خلال الصراع بين العرب والمولدين والمستعربين فى كورة البيرة وقعت أحداث خطيرة فى اشبيلية ، وكانت مدينة اشبيلية منذ عهد القوط مستقر الحضارة الرومانية ومكان اقامة أعرق الأسر وأوسعها ثراء ، ولم يغير الفتح الاسلامى الا القليل من نظامها الاجتماعى ، وكان أكثر سكانها من العرب يقيمون فى الضواحى وقليل منهم من كان يؤثر السكنى فى داخل المدينة ، ولذلك كان أغلب سكانها من سلالة الرومان والقوط ، وقد زادت التجارة والزراعة فى ثرواتهم ، وكثير من الاشبيليين تركوا المسيحية واعتنقوا الاسلام ، وكانوا يؤثرون المسالمة والطاعة ، وينظرون الى الأمير باعتباره القيم على الأمن والنظام وحارسهما ، ولكنهم كانوا يخشون بأس العرب المقيمين فى المناطق الزراعية حول حاضرتهم ، وكان العرب المقيمون فى منطقة الشرف القريبة من اشبيلية أقوياء المراس

مرهوبى الجانب ، وقد كونوا حلفا مع العرب العدنانية فى منطقة اشبيلية ومع البربر البتر فى ناحية مورور ٠

وكان من بين الأسر العربية البارزة فى منطقة اشبيليه أسرتان هما بنو حجاج وبنو خلدون ، وكانت أسرة بنى حجاج من قبيلة لخم اليمنية ، وكذلك كانت أسرة بنى خلدون من أصل يمنى ، وفى أول عهد الامير عبد الله كان كريب رئيس بنى خلدون ، وكان يضمر العداء لبنى أمية وكان يتطلع الى أن تسترد أسرته السيطرة التى استلبها منها الأمويون ، وحاول فى بادىء الأمر أن يدعو عرب اشبيلية الى الثورة ، ويحرك فى نفوسهم حب الحرية والانطلاق ، ولكنه لم يوفق فى ذلك لأن معظم العرب فى تلك الناحية كانوا قرشيين أو من موالى الاسرة الأموية ، وكانوا يؤثرون الابقاء على سيطرة القانون والمحافظة على استقرار نظام الحكم ، فلم يظهروا عطفا على ماكان يتطلع اليه كريب ، وصارحوه بأنهم لا يريدون أن يكونوا مطية لتحقيق مطامع أى زعيم ، ولما أخفق فى محاولة تحريك بواعث الثورة فى سكان اشبيلية من العرب لجأ الى الشرف ،واستطاع آثارة حماسة قبيلته ٠ ووعده رجالها بالقيام معه بالثورة متى بدأها ، وكون حلفا من بنى حجاج وزعيمى لبلة وشذونة وزعيم البربر فى قرمونة لانتزاع اشبيلية من سيطرة بنى أمية ، وسلب المولدين والمستعربين ، وكانت الطبقة الارستقراطية فى اشبيلية تجهل ما يدبره كريب ، وترامت الى آذان أفرادها اشاعات غامضة عن هذه المؤامرة ولكن لم تكن عندهم معلومات وافية عنها ، وأراد كريب أن يبدأ حركته بالانتقام من هؤلاء الذين أحجموا عن الاستجابة لرغبته ، ولكى يريهم أن الأمير عبد الله لا يستطيع حمايتهم أسر الى بربر مريدة وميدلين أن مقاطعة اشبيلية تكاد تكون خالية من الجيوش ، وانهم اذا

كانوا يريدون الحصول على الغنائم الضخمة فانهـا هناك فى متناول أيديهم ، ولما كانوا مستعدين على الدوام لشن الغارات فانهم هاجموا طلياطة الواقعة على مسافة نصف فرسـخ من اشبيلية ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، فجنـد حاكم اشبيلية كل من يستطيع حمل السلاح ، وتقدم لمهاجمة البربر ، ولما علم أنهم قد استولوا على طلياطة نصب معسكره على مرتفع يعرف بجبل الزيتون ، ولم يكن بينه وبين العـدو سوى ثلاثة أميال ، واستعد الفريقان للمعركة التى ستقع فى اليـوم التالى ، وكان كريب قد ضم رجاله الى جند الوالى مثل سائر الطبقـة الارستقراطية فى اشبيلية ، ولكنه فى أثنـاء الليـل أخبر البربر بأنه سيأمر رجاله بالانسحاب فى أثناء المعركة ، وبذلك يجعل انتصارهم سهلا ، ووفى بوعده ، وعند انسـحابه من المعركة تبعه سائر الجيش ، وطاردت البربر الوالى الذى ظل يتراجع حتى قرية وبرة الواقعة على مسـافة خمسة فراسخ من اشبيلية وهناك أقام معسـكره وجمع أطرافه ، ولم يحاول البربر زحزحته ، وعـادوا الى طلياطة وعسكروا بها ثلاثة أيام عاثوا فيها فسادا واتلافا فى النواحى المجاورة ثم حملوا غنائمهم وعادوا الى منازلهم .

وقد أضرت هذه الغارة الرهيبة بالكثيرين من ملاك الضياع فى اشبيلية ، وتبعتها نكبة أخرى لم يكن سببها كريب ، فان الثائر الخطير ابن مروان الجليقى الذى استولى على بطليوس حينما علم بالغنـائم التى ظفر بها البربر المقيمون فى ناحية مريدة رأى أن يقوم بغارة مماثلة ، وتقدم الى مسافة عشرة أميال من اشبيلية ، وجد فى السلب والنهب وعاد محملا بالغنائم وأغضب موقف الوالى السلبى أهل اشبيلية ، وأثار حنقهـم عليه ، واستجابة لشكواهم من تقاعده عزله الأمير ، وكان الوالى الذى خلفه نقى السمعة ، ولـكنه عجز عن مقـاومة المغيرين ،

والمحافظة على الأمن والنظام ، حتى كثرت الغارات ، وعم النهب والسلب ، وكان أشد اللصوص وقطاع الطرق وطأة تامشكا من برابرة قرمونة ، وكان يسطو على المسافرين فى الطريق بين اشبيلية وقرطبة ، ولم يستطع الوالى أن يتخذ أى اجراء لمقاومته ، وأخيرا تقدم أحد المولدين الشجعان وهو محمد بن غالب ووعد الأمير عبد الله بالقضاء على طغيان اللصوص اذا سمح له ببناء قلعة فى قرية سيتاتوريس الواقعة فى حدود اشبيلية واستجة ، وقبل الأمير هذا العرض ، وأقيمت القلعة ، وشحنها ابن غالب بعدد من المولدين وموالى بنى أمية ، وسرعان ما أدرك اللصوص أنه قد ظهر فى الميدان من يستطيع رد عدوانهم ، وتوطد الأمن واستقر النظام ، وفى ذات يوم عند شروق الشمس ذاع فى اشبيلية أنه حدث فى أثناء الليل صراع بين حرس قلعة ابن غالب وقبيلتى بنى خلدون وبنى حجاج ، وان أحد أفراد قبيلة بنى حجاج قتل فى المعركة وحملت جثته الى المدينة ، وأشيع أن بنى حجاج قد تقدموا الى الوالى يطلبون العدالة ، ولكنه رفض أن يتحمل التبعة ، وأحالهم على أمير قرطبة ليتولى بنفسه الفصل فى الموضوع والحكم فى هذه القضية ، وفى الوقت الذى أثارت فيه هذه الأنباء اشبيلية كان يؤم قرطبة وفدان : أحدهما وفد يمثل العرب وعلى رأسهم ممثلون لأسرتى بنى خلدون وبنى حجاج للشكوى من سلوك ابن غالب والوفد الآخر يمثل المولدين والمستعربين لبيان حقيقة ما حدث والدفاع عن موقف ابن غالب ، ورمى وفد العرب ابن غالب بأنه خائن ، وان رجاله عصابة من اللصوص والسفاحين وان الذين أشاروا على الأمير عبد الله بوضع ثقته فى ابن غالب قد غشوه ، واتهموه بأنه على اتصال خفى بالثائر الكبير ابن حفصون ، وجاء بعدهم وفد المولدين والمستعربين فذكروا للأمير ان بنى خلدون

وبنى حجاج قد دبرا مفاجأة القلعة فى أثناء الليل وأن ابن غالب كان قد احتاط للأمر ورد عن قلعته الهجوم المفاجىء ، فاذا كان أحد المهاجمين قد قتل فان وزر قتله لا يقع على ابن غالب الذى قام بما يلزمه به الدفاع المشروع عن النفس ، ونصحوا الأمير بألا يصـــدق أكاذيب العرب المشاغبين ، وأن ابن غالب من أصدق الناس اخلاصا له وأشدهم ولاء للبيت الأموى ، وأنه بتطهيره المدينة والكورة من اللصوص قد أدى للدولة خـدمة جليلة ، ولم يقدم الأمير عبد الله على الفصل فى الموضوع خشية أن يغضب أحد الطرفين ، ورأى أن يوفد ابنه محمد الى اشبيلية للتحقيق فى هذه القضية ، ولما وصل الأمير محمد ـ وكان ولى عهد أبيه ـ الى اشبيلية استدعى ابن غالب وبنى حجاج لسماع أقوالهم ، وتبادل الفريقان التهم ، فلم يستطع محمد البت فى الموضوع لعدم وجود الشهود العدول ، وأدى هذا التردد من ناحية الأمير ونجله الى اثارة الخواطر فى اشبيلية واضطرام الفتنة ، وأعلن الأمير محمد أنه سيرجىء الحكم ، وسمح لابن غالب بأن يعود الى قلعته . وعد المولدون والمستعربون هذا انتصـــارا لهم ، وأعلنوا أن الأمير فى جانبهم وأنه أمسك عن المصارحة برأيه واصدار حكمه تحاشيا لاثارة مشاعر العرب، وكان هـــذا كذلك رأى بنى خلدون وبنى حجـــاج ؛ ولذلك صمموا على الانتقام وأحداث الشغب ، واتفقوا على أن يقـوم كريب بالاستيلاء على حصن قورية ، وأن يتـولى عبد الله زعيم بنى حجاج الهجوم على قرمونة ، واستولى كريب على حصن قورية ، وغنم ما به واستعان عبد الله بن حجاج بجنيد وهو من البربر فى امتلاك قرمونة ، وهرب واليها قاصدا اشبيلية، وأخافت جرأة العرب سكان المدينة ، فأرسل الأمير محمـــد رسالة عاجلة الى والده يطلب النجـدة والرأى فى مواجهـــة الموقف ، وحينما تلقى الأمير عبـــد الله هـــذه الرسالة شاور

وزراءه فى الأمر فأشار عليه أحدهم بعد طلب الخلوة به بأن يأخذ جانب العرب ويقتل ابن غالب ، وأن ذلك سيكون كفيلا بعودة قورية وقرمونة الى سيطرته وتهدئة خواطر العرب ، ومال الأمير عبد الله الى الأخذ بهذا الرأى برغم ما فيه من التضحية برجل أعلن ولاءه للدولة وأعانها فى قطع دابر اللصوص وقطاع الطرق ، واستعادة الأمن والنظام ، واستدعى قائده جعدا وأمره بالمسير مع بعض الفرق الى قرمونة ، ويعلن أنه فى جانب متهمى ابن غالب ، ويقتله ، ويبذل كل جهده فى اقناع العرب بالعودة الى مسالمته ، ولا يلجأ الى استعمال القوة الا بعد أن يبذل أقصى ما عنده فى حملهم على الطاعة ، وسار جعد فى طريقه ومع أنه لم يعلن ما كانت تستهدفه حملته الا أن المولدين والمستعربين أدركوا أن المقصود القضاء على ابن غالب واحتاط ابن غالب لنفسه ، واحتمى بالثائر ابن حفصون ، وتلقى بعد ذلك رسالة من القائد جعد يقول له فيها : ان هدف الحملة معاقبة العرب لما أظهروا من قسوة واخلالهم بالأمن ، وانه يريد الاستعانة به فى تحقيق ذلك ، وخدع ابن غالب بهذه الدعوة الغادرة ، فلما اقترب جعد من قلعته انضم له ومعه كتيبة من رجاله ، وتظاهر جعد بالاستعداد لمحاصرة المدينة ، ولكنه فى الوقت نفسه كتب الى ابن حجاج يخبره بأنه سيضحى بابن غالب على شريطة أن يخضع للأمير عبد الله ، وتمت الصفقة وقتل ابن غالب ، وترك ابن حجاج قرمونة ، ولما علم المولدون والمستعربون بمصرع ابن غالب أثار ذلك الغدر حنقهم ، واشتدت نقمتهم على الأمير عبد الله ، وصمموا على قتل أمية أخى جعد وكان حينذاك والى اشبيلية . ولكنهم وجدوا أنهم لا يستطيعون ذلك الا اذا تمت لهم السيطرة على المدينة ، فتقدموا الى الأمير محمد بالشكوى من جعد وغدره بابن غالب ، وذكروا له أنه يعتزم مهاجمة

المدينة ، وأنه اذا أراد أن يكسب ولاءهم ويجعلهم مدينين له بالشكر فان عليه أن يسلمهم مفاتيح المدينة حتى تنجلى الأزمة ، ولم يكن الأمير محمد على وفاق مع العرب وليس معه سوى القليل من الحرس فلم ير بدا من تسليمهم المفاتيح المطلوبة ، وأخذ جانب المولدين والمستعربين حلفاؤهم من العرب العدنانية والبربر البتر الذين وصلوا الى المدينة فى ٩ سبتمبر سنة ٨٨٩ م (٢٧٦ هجرية) وهاجمت جموع غفيرة قصر أمية ، وكان الهجوم مفاجئا الى حد أنه لم يتمكن من أن يحتذى حذاءه ، وأسرع ممتطيا جواده الى قصر الأمير وبعد أن نهب الثائرون قصر الحاكم تدفقت جموعهم على قصر الأمير وقد ارتفعت صيحاتهم ، وأحاطوا به وقد انضم الى الجمع الحاشد التجار والعمال والصناع ، وتوالت رسل الامير الى أعيان المدينة لتهدئة الخواطر وانقاذ الموقف ، وفى اللحظة التى اشتد فيها الخطر أقبل جعد ومعه عدد من الفرسان ، وشق طريقه شاهرا سيفه ، وأنقذ الأمير محمدا وأخاه بعد صراع عنيف سقط فيه الكثير من القتلى ، وعاد الأمير محمد وجعد الى قرطبة ، وجاء بعد ذهابهما ابن حفصون مطالبا برأس جعد ؛ لأنه قتل حليفه ابن غالب ، وبرغم أن جعدا قتل ابن غالب بايحاء من الأمير عبد الله الا أنه كان يعرف سطوة ابن حفصون وما يثيره من الرعب فى النفوس ، وخشى أن يضحى به استرضاء لابن حفصون ودفعا لشره ، ورأى أن الهرب هو الفرصة الوحيدة لاتقاء هذا الخطر ؛ ولذلك غادر العاصمة سرا فى جنح الليل لاجئا الى أخيه حاكم أشبيلية ، وصحبه أخواه الآخران هاشم وعبد الغافر وقليل من الأصدقاء ، وشاء سوء الحظ أن يلقاهم فى الطريق تاماشكا البربرى الذى كان يرتاد تلك الأنحاء ومعه عصابته ، وكان فى العصابة اثنان من اخوة ابن غالب ، وعرفا جعدا ،

وهاجمت العصابة جعدا وأخويه وأصدقاءه ، وقتلت جعدا وأخويه وأحد القرشيين ، وكان هذا العدوان كارثة للمولدين والمستعربين فى اشبيلية فان أمية الذى عجز عن الانتقام من القتلة صب غضبه ونقمته على المولدين والمستعربين فى اشبيلية ، وسلمهم الى أيدى بنى خلدون وبنى حجاج ، وحدثت مجزرة مروعة قتل فيها ألوف من المولدين والمستعربين والذين حاولوا الهرب غرقوا فى نهر الوادى الكبير ، وساءت حالة الباقين على قيد الحياة منهم وتعرضوا للبؤس والفقر ، ولم يستفد الأمير عبد الله من اخماد هذه الثورة والقضاء على هذا الاضطراب ، وانما الذى أفاد منه وازداد سطوة هى القبائل العربية اليمنية ، وحاول أمية أيقاع الشقاق بين جنيد البربرى وعبد الله بن حجاج ، وكانا قد اقتسما السلطة فى قرمونة ، كما حاول أن يحدث شقاقا بين كريب وحزبه ، ولكنه لم يوفق فى مسعاه ، وقد أغرى جنيدا بقتل عبد الله بن حجاج ، ولكن مقتل عبد الله أضر به أكثر مما نفعه ، فقد خلف عبد الله فى زعامة بنى حجاج ابنه ابراهيم ، وكان رجلا موهوبا ويخشى جانبه أكثر من أبيه ، وكان كريب زعيم بنى خلدون أدهى من أن يخدعه أمية ؛ ولذلك عجز عن النيل من اليمنية ، وقد اضطر أمية الى أن يدافع عن سيطرته على المدينة حتى خر قتيلا بعد أن قتل زوجاته وحرق كل ما يملك وعقر جياده ، وكتب اليمنيون الى الأمير عبد الله يخبرونه بمقتل أمية وأنه كان يضمر الثورة ، ولم يكن فى وسع الأمير أن ينزل بهم العقوبة فقبل قولهم وأرسل لهم واليا جديدا ، ولكن هذا الوالى الجديد لم يكن له من الأمر شىء وكان ألعوبة فى يد ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون ، وظن الأمير عبد الله أنه قد يستطيع تحسين الموقف بتغيير الحاكم الجديد فأرسل واليا آخر على المدينة ومعه عمه هشام بن محمد

ولم يكن فى صحبتهما جيش ؛ ولذلك ظلت السيطرة على المدينة فى يد اليمنية ، وهكذا كان الموقف فى أشبيلية سنة ٨٩١ م (٢٧٨ هـ) وهى السنة الرابعة من حكم الأمير عبد الله ، وفى هذا التاريخ كانت معظم اسبانيا الاسلامية قد نبذت الولاء للأمير عبد الله ، واستحوذ كل من العرب والبربر وسلالة الأسبانيين على التركة الأموية ، وكان العرب أقلهم نصيبا ، ولم تكن لهم سيطرة الا فى اشبيلية ، أما فى غيرها فكانوا يجدون صعوبة فى الاحتفاظ بسلطانهم ، وكثير منهم مثل ابن عطاف صاحب منتيشة ، وابن السليم صاحب مدينة ابن السليم فى كورة شذونة وابن وضاح صاحب لورقة والأنقر صاحب سرقسطة كانوا ينفذون أوامر الأمير عبد الله حينما يروقهم ذلك ، ولم يقطعوا صلتهم بقرطبة لأنهم لم يكونوا واثقين من رسوخ أقدامهم فى تلك الولايات المعرضة للهجوم من شتى النواحى .

وكان البربر قد ارتدوا الى الحكم القبلى وقبول زعامة رئيس القبيلة ، وكانوا أقوياء المراس وأقل من غيرهم ميلا الى الطاعة وسلاسة القياد ، وقد استولى الملاحى — وهو عمر بن مضم البنزوتى على حصن جيان وكان جنديا متدربا واستولى الأخوان خليل وسعيد على قلعتين فى كورة البيرة ، وهما من أسرة قديمة ، وكانت مقاطعة استراما دورا والنتيجة جميعهما على وجه التقريب فى يد البربر ، وكان ابن تاكيت البربرى من قبيلة مصمودة قد استولى على مريدة ، وقد طرد العرب وبربر قبيلة كتامة منها ، وكانت لا تهدأ الحرب بينه وبين ابن مروان الجليقى صاحب بطليوس فانه لم ينس له مساعدته للأمير محمد حينما حاصر مريدة ، ولكن أقوى قبائل البربر جميعا كانت قبيلة بنى ذى النون ، وكان زعيمها موسى من الشخصيات البغيضة الماكرة ، وكان أولاده الثلاثة يشبهونه

فى قوة البنية وشدة المراس والميل الى العدوان وهم : الفتح صاحب أقليش ومطرف صاحب وبذة ويحيى وهو أشدهم ضرواة وأشدهم فتكا ، وكانوا يقودون عصابات اللصوص ولا ينفكون عن السطو والنهب والقتل ، وفى مقاطعة أكشونية فى الجنوب الغربى كان يسيطر بكر ، وقد استقل أبوه يحيى فى أواخر حكم الأمير محمد واستولى فى أول أمره على حصن شننت مارية واستطاع بذلك السيطرة على المنطقة ، وبكر نفسه كان يقيم فى مدينة شلب ، وله جيش منظم ومجلس استشارى وكان يحكم رعيته فى رفق ولين ، وزاد مركزه قوة بتحالفه مع ابن حفصون وابن مروان الجليقى صاحب بطليوس وغيرهما من المولدين، وكان جاره وحليفه فى الشمال عبد الملك ابن أبى الجماعة الذى اقتعد مدينة باجة ، وتحصن بحصن مارتلة ، وأبعد من ذلك فى الناحية الشرقية فى جبال كان يسيطر عليها ابن مستنة وكان أكثر حلفاء ابن حفصون نشاطا وكانت قلعته المسماة قرقبولة تعد من أشد القلاع مناعة ، وكان جميع سادة كورة جيان حلفاء لابن حفصون أو من أتباعه ، وهم خير بن شاكر صاحب حصن شوذر ، وسعيد ابن هذيل الذى امتلك حصن المنتلون وبنى قصبته وحصنها وأعلن بالخلاف ، وبنو هابل وهم أربعة اخوة خلعوا طاعة الأمير عبد الله واستولوا على بعض الحصون وأطلقوا الغارات ، منها حصن شان انتبن وابن الشالية وكان يملك عدة حصون منها قلعة ابن عمر وقلعة قزلونة وكان واسع الثراء يمنح الشعراء فى سخاء وملك ناحية جبل شمنتان وما يليها فى كورة جيان، وامتد الى حصن قسطلونة وغيره وقد بنى المبانى الفخمة واسمه لب بن عبد الله بن أمية ، وقد زوج ابنته لجعفر بن عمر بن حفصون فاعتز جانبه ، وكان الشاعر عبيديس بن محمود كاتبه ومتصرفا فى خدمته مكثرا من مديحه واصفا

لمغازيه ومبانيه ، وكان يجزل عطيته ، ومن شعر عبيديس فى وصف قصره :

قصر الأمير أبى مروان منتسخ
من جنة الخلد بالسراء معمور

فيه مجالس قد شيدت على عمد
بنيانهـا مرمر بالتبر مطرور

ومن الثائرين فى هذه الفترة ديسم بن اسحاق الذى بسط سلطانه على مرسية ولورقة ومعظم كورة تدمير وكان له جيش وكان كريما محبوبا من رعيته ·

وقد ظل ابن حفصون أقوى خصوم الأمير عبد الله ، وقد ازدادت سيطرته واتسع نفوذه وقويت سطوته فى عهد الأمير عبد الله وقد حاول الأمير مهاجمة ببشتر فى ربيع سنة ٨٨٩م (٢٧٦هـ) وفى طريقه اليها استولى على بعض الدساكرة ، وأتلف بعض الحقول ولم يكد يرجع بجيشه الى قرطبة حتى كان ابن حفصون قد استولى على اسطبة وأوشونة ، وسارع أهل استجة الى الاعتراف بسلطته ، وسألوه أن يحتل المدينة بجيشه ، وراع هذا النجاح السريع الأمير عبد الله فحشد ما استطاع حشده من الجيوش وعاد الى مهاجمة ابن حفصون ، ورأى ابن حفصون الاكتفاء بما فى سيطرته وقبل أن يعقد صلحا مع الأمير عبد الله مشترطا أن يظل مستوليا على ما فى حوزته من المدن والقلاع ، وقبل الأمير عبد الله هذا الشرط، ولم يعبأ ابن حفصون بالصلح المعقود بينه وبين الأمير واستولى على بيانة وصارت القلاع والحصون الواقعة جنوب نهر الوادى الكبير جميعها فى حوزته،ووثق من أن قرطبة ستسقط فى يده بعد قليل من الزمن ، ورأى أن عرب الأندلس لا يأنفون من قبول ولايته اذا حصل من خليفة بغداد على ذلك ، وأن هذه

الموافقة تعلى مكانته ،وتوطد نفوذه ، ولما استقر عزمه عـــلى ذلك كتب الى ابن الأغلب حاكم أفريقية من قبل الخليفة العباسى وبعث بهدية مع الرسالة ، ورحب ابن الأغلب بهذا التقرب ، وأرسل هدية لابن حفصون ، وشجع اتجاهه ، ووعده بأنــه سيعمل على تحقيق رغبته عند الخليفة العباسى ، وفى انتظاره للوقت الذى يستطيع فيه أن يرفع العلم العباسى اقترب من قرطبة ، واتخذ له معسكرا فى استجة ، وعم الخــوف أهل قرطبة واقتربت الغارات من أحواز المدينة ، وتوالت النكبات على أهلها ، وكثر التذمر من حوادث السرقة والنهب وسبى النساء والأطفال ، وظهر عجز الأمير عبد الله ، وخلت خزينة الدولة من المال الذى يكفى لدفع مرتبات الجند فاشتدت نقمتهم واضطر الأمير الى الاقتراض ، ولكن المبالغ القليلة من المال الذى اقترضه كانت تدفع لبعض العرب الذين ظلوا على ولائهم له فى الأقاليم ، وكسدت التجارة ، وساءت الحالة الاقتصادية وصارت الناس تنظر الى المستقبل نظرة تشاؤمية وغلب على نفوسهم الهم والأسى ، وكان أشدهم هما الأمير عبد الله نفسه، فالعرش الذى وصل اليه على جثة أخيه قد أصبح عرضـــــة للسقوط ، وسياسة المواربة التى اتبعها لم تجده نفعا ، وزادت المشكلات تعقيدا ، وحاول أن يستصلح الثائر ابن حفصون ولكن ابن حفصون كان متأكدا من أنه سينتصر فى النهايةفلم يعبأ به ، ويئس الأمير عبد الله من التقرب منه واستدراجه الى الطاعة ، واستشعر الزهد فى الحياة ، ولعله قد نظم أبياته الآتية وهو يعانى هذه الحالة النفسية :

يا من يراوغــه الأجــل
حتام يلهيك الأمـــل
حتام لا تخشى الردي
وكأنه بك قـــد نزل

أغفلت عن طلب النجـــا
ة ولا نجـــاة لمن غفل
هيهات يشغلك الرجـــا
ء ولا يدوم لك الشغل
فكأن يومك لم يكن
وكأن نعيـــك قد نزل

ويبدو أن هذه الحالة النفسية قد ألحت عليه فرفه عن نفسه بهذه المقطوعة :

أرى الدنيا تصير الى فنـــاء
وما فيها لشيء من بقـــاء
فبادر بالانابة غير وان
على شيء يصير الى فنـــاء
كأنك قد حملت على سرير
وصار جديد حسنك للبلاء
فنافس فى التقى واجنح اليه
لعلك ترضين رب السماء
ونفسك فابكها أو نح عليها
فربتما رحمت على البكاء

ولكنه استنجد عزمه وبذل جهدا فى التغلب على هـــذه الحالة النفسية ، واتفق فى ذلك الوقت أن ابن حفصون أرسل اليه برأس خير بن شاكر صاحب حصن شوذر الذى سبق أن ثار عليه ، وظاهر ابن حفصون ، ورأى فى ذلك دليـــــلا على أن ابن حفصون قد بدا له مسالمته والتقرب منه ، ولكن ابن حفصون سرعان ما خيب ظنه بمحـــاصرته لحصون كورة قبرة التى كانت لا تزال خاضعة للأمير عبد الله ، ولم يعد هناك بد بعد ذلك من أن يخوض معركة حياة أو موت مع هذا الثائر

العنيد؛ فأخبر وزراءه أنه قد عقد العزم على مهاجمة ابن حفصون فخوفه وزراؤه عاقبة الاقدام على ذلك ، وذكروا له أن جيشه أقل عددا من جيش ابن حفصون ، وانه سيقاوم عدوا قوى الشكيمة ، ولكنه أصر على رأيه ، وكأنه صمم على أن يموت ميتة كريمة ·

ورحب ابن حفصون باقدام الأمير عبد الله على منازلته ، وسمع وهو فى استجة أن الأمير عبد الله قد أخرج السرادق الى فحص الربض بشقندة ، فلما اشتدت أطنابه ، ومدت حبائله بعث ابن حفصون خيلا الى شقندة لتأخذ السرادق، وتهاجم البلد ،وتحيط بأطرافه ، وبرغم أن حراس السرادق كانوا قلة فانهم أجادوا الدفاع ، وردوا الغارة ، ولما رأى ابن‌حفصون أن خطته لم تنجح لاذ بحصن بلى بقبرة ، وكان‌لهذه الوقعة الصغيرة تأثير حسن فى استعادة أهل قرطبة الثقة بأنفسهم ، وبرغم أن‌جيش ابن حفصون كان أكثر عددا وأقدر على ممارسة الحرب وأحسن تدريبا فقد استطاع الأمير عبد الله أن ينتصر عليه ويفرق جمعه ويسترد الكثير من القلاع الثائرة ولاذ ابن حفصون بحصنه المنيع فى ببشتر وحاصره جيش الأمير عبد الله على غير جدوى ، لمناعة الحصن واكتفى الأمير عبد الله بما أحرز من انتصار وعاد بجيشه الى قرطبة ، ونظم ابن عبد ربه صاحب « العقد » قصيدة يذكر فيها انتصار الأمير عبد الله وهزيمة ابن حفصون منها قوله :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر
والسيف يطلبه فليس بناج

ما زال يلقح كل حرب حائل
فالآن أنتجها بشر نتاج

ولم تقض هذه الهزيمة على ابن حفصون ، فقد عاد بعدها

الى بغيه وافساده وتحديه لسلطة الأمير عبد الله وانتصار الأمير عبد الله فى معركة بلى مكنه من اســـترداد استجة وأرشذونة وجيان والبيرة ، وذاعت أخباره فى أنحاء العالم الأندلسىوالعالم العربى وبعد أن كان ابن الأغلب يرحب بوفود ابن حفصون صار يتلقاها فى فتور لأنه لم ير فائدة من تزكية الثائر الذى هزم، ويئس ابن حفصون من الحصول من خليفة بغداد على اقرار ولايته على الأندلس ، ولكن هذه الهزيمة لم تنل من قوته كل النيل ورأى من الحزم أن يسعى فى طلب الصلح ، وقبل ذلك الأمير عبد الله ولكنه اشترط أن يكون أحد أبناء ابن حفصون رهينة عنده ، وقبل ابن حفصون هذا الشرط ، ولما كان ينوى العودة الى الحرب فانه أرسل الى الأمير ابن أحد رجاله ، وكان قد تبناه على أنه من أبنائه ، وحينما عرف الأمير عبد الله ذلك فسد ما بينه وبين ابن حفصون ، واضطرمت الحرب بينهما ،واسترد ابن حفصون القلاع التى فقدها واستعاد سيطرته على أرشذونة فى سنة ٨٩٢م (٢٨٠هجرية) وبعد ذلك أسترد ألبيرة وجيان ولكن السكان لم يلبثوا أن عادوا الى ولائهم لحكومة قرطبة ، ولم ير الأمير فائدة فى محاولة التغلب على ابن حفصون ، فوجه همه الى محاربة الثائرين الآخرين الأقل منه قوة ، ولم يكن يقصد القضاء عليهم فقد كان يكفيه منهم الاعتراف بسلطته ودفـع الجزية للخزينة ، وقد أفاده ذلك من الناحية المالية ، أما فى اشبيلية فقد ظل بها عمه هشام والياصوريا واقتسم السلطة فيهـا بنو حجاج وبنو خلدون ، وكان اقتسام السلطة بينهما مدة لوقوع الخلاف والتنافس ، وحاول الأمير عبد الله توسيع شقة هذا الخلاف والايقاع بين ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون ، وقد أسفر هذا الخلاف عن قتل كريب وخالد ابنى خلدون ، وأصبح ابراهيم بن حجاج منفردا بالســـلطة فى اشبيلية ، وسعى ابراهيم فى التقرب من الأمير عبد الله ، ولكن

الأمير عبد الله أرسل حاكما لأشبيلية من قبله ليحكم المدينة مع ابراهيم بن حجاج ، ولكن ابراهيم كان يريد الانفراد بالسلطة فضاق ذرعا بوجود الحاكم الذى أرسل لمشاركته فى الحكم فأخبره بعد مضى أشهر أن المدينة ليست فى حاجة اليه ، وأرسل الى الأمير يطلب اعادة ابنه اليه ، وكان رهينة عند الأمير عبد الله ، ولكنه رفض اجابة هذا الطلب ، وأراد ابراهيم أن يخيف الأمير عبد الله فرفض دفع الجزية ونبذ الطاعة ، وظاهر ابن حفصون ، وكان ابن حفصون حينذاك قد ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية ، وفقد بذلك أنصاره من المسلمين ، ولذلك رحب بتقرب ابراهيم بن حجاج منه ، وكان يلتمس الحلفاء من شتى الأنحاء ، فاتصل ببنى قسى وملك نيون ، وساء موقف الأمير عبد الله وشرع فى اجراء مفاوضات مع ابن حفصون وعقد معه صلحا لم تطل مدته ، وتجددت الحرب بينهما فى سنة ٩٠٢ م (٢٩٠ هجرية) وأشار بدر القائد الصقلى على الأمير عبد الله باطلاق سراح عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج وأيده فى ذلك سائر الوزراء واستجاب الأمير عبد الله لنصيحتهم ، وسر بذلك ابراهيم بن حجاج ولم يقطع صلته بابن حفصون ، ولكنه توقف عن مساعدته وامداده بالجند ، وقبل الخضوع للأمير عبد الله ولكنه ظل محتفظا بالسيطرة على اشبيلية ، وكان له بها جيش خاص وحرس من الفرسان ، وصار يرسل للأمير الجزية السنوية ، وكان ابراهيم بن حجاج جوادا ممدحا يرتاح للثناء ويغدق على الشعراء وقصده ابن عبد ربه فأفضل عليه ومدحه ابن عبد ربه بأماديح مشهورة ومن قوله فيه يصف تنقله بين اشبيلية وقرمونة قوله :

الا أن ابراهيم لجة ساحل

من الجود أرست فوقه لجة ساحل

فاشبيلية الزهراء تزهـــو بوجهه
وقرمونة الغراء ذات الفضائل

اذا ما تخلت تلك من نور وجهه
غدت هـــذه للناس فى زى عاطل

وان حل هذى فهو يوحش هذه
فتهـــدى برســـل نحـــوه ورسائل

وله فيه أشعار كثيرة ، وعظم شأن ابراهيم وتوطدت مكانته ويقول عنه ابن عـــــذارى (١) « لم يلحقه فى ذلك أحد فى وقته ولا قدر على نيل مرتبته ، الى أن وافتـــه منيته فجأة » وكان ذلك فى سنة ٢٨٨ هجرية (٩٠٠ ميلادية) وولى بعده ابنه عبد الرحمن اشبيلية كما ولى ابنه محمد قرمونة(٢) وكانت له بها دولة حسنة وأيام صالحة » كما يقول ابن عذارى وكان لتحسن العلاقات بين الأمير عبد الله وابراهيم بن حجاج أثر طيب فى استعادة ســـيطرة الأمير عبد الله على الأندلس فقد كانت اشبيلية على الدوام مصدراً للثـــورات فى الناحية الغربية ، وحينما اعترفت بولائها للأمير عبـــد الله دانت له بالطـــاعة الجزيرة الخضراء ولبلة واستطاع بذلك أن يوجـــه جهوده الى اعادة سلطته فى الجنوب ، وقد أفاد الأمير عبد الله فى ذلك من نصائح بدر قائده وحسن سياسته ، وفى سنة ٩٠٣ م (٢٩١ هـ) استرد جيشه جيان وفى سنة ٩٠٥ م (٢٩٢ هـ) انتصر جيشه على ابن حفصون فى معركة وادى بلون فى كورة جيان ، وفى السنة التالية استولى جيشه على حصن قنيـــط من تاكرنا واستنزل من فيه من بنى الخليع ، وفى سنة ٩٠٧ م (٢٩٥ هـ) أرغم أرشذونة على دفع الجزية السنوية وفى سنة ٩٠٩ م (٢٩٧ هـ) أرغم ابن مستنة على

(١) ، (٢) ابن عذارى : الجزء الثـــانى من البيان المغرب صـــفحة ١٩٥ .

التنازل عن حصن لك وفى سنة ٩١٠م (٢٩٨ هجرية) استولى على بياسة ، وفى السنة التالية ثار أهل حصن أشر على فضل ابن سلمة ختن اسعيد بن مستنة وقتلوه وأرسلوا رأسه الى الامير عبد الله ، وفى الشمال كان هناك تحسن واضح ، فقد حدث فى سـنة ٨٩٨ م (٢٨٥ هـ) أن وعد محمـد بن لب ـ من أسرة بنى قسى ـ بزيارة جيان لاجراء مفاوضة مع ابن حفصون ، وأخاف الاتفاق بين مولدى الشمال الاقوياء ومولدى الجنوب الخارجين على السلطان أمير قرطبة ، وحدثت حرب بين الأنقر حاكم سرقسـطة وبين محمـد بن لب حالت دون انتقاله الى جيان ، وأرسل ابنه بدلا منه ، ولما وصل ابنـه لب الى جيـان وانتظر حضور ابن حفصون تلقى خبر وفاة والده الذى قتل وهو يحاصر سرقسطة ، فبادر بالعودة دون أن يلقى ابن حفصون ، ولم يسمع بعد ذلك شىء عن الاتفاق بين ابن حفصون وبنى قسى ، وعمل لوب على التقرب من الأمير عبد الله فوافق الأمير على جعله حاكما لتطيلة وطرسونة ، وقد استعمل لب جيشه فى حرب متصلة أعلنها على جيرانه مثل صاحب وشقة ، وملك ليون ، وصاحب برشلونة ، وقد قتـل فى معركة بينه وبين الأخير فى سنة ٩٠٧ م (٢٩٥ هـ) وخلفه أخوه عبد الله ، ولميخرج على طاعة الأمير عبد الله وانما حارب ملك نافار ، وبذلك لم يصبح بنو قسى مصدر خطر على سيادة بنى أمية ، وتقشعت غيوم كثيرة من سماء حكومة قرطبـة لكنها مع ذلك لم تكن صافية جلواء ، وحينما قضى الأمير عبدالله نحبه فى سنة ٩١٢ م (٣٠٠هـ) كانت سلطة أمير قرطبـة متقلصة فى بعض المدن الهامة وأقرب الى أن تكون اسميـة وصورية فى سائر أنحاء الأندلس ، وكان على الشاب الذى خلفه فى الولاية وهو عبد الرحمن الناصر أن يجاهد جهـادا طويلا شـاقا ، ويخوض معـارك طاحنة ، ويريق دماء كثيرة

لاسترداد السلطة الحقيقية لامارة قرطبة ، ويوطد أركانها ، ويقضى على الثائرين والمنافسين والمتمردين من اللصوص وقطاع الطرق ، ولذلك عاش نصف القرن ــ وهو مدة ولايته ــ وسيفه دون ملكه مسلول ، وكانت حياته أقرب شبها بحياة أبطال الياذة هوميروس منها بحياة الملوك والأمراء الوادعين المرفهين المنغمسين فى المتع الدنيوية والملذات الحسية ٠

سياسة عبد الرحمن في استرداد سيطرة الدولة الأموية بالأندلس

حينما تقلد عبد الرحمن امـــارة الدولة الأموية فى الأندلس شرع فى اتباع سياسة مبتكرة مخالفة لسياسة جده ، فقد كانت سياسة الأمير عبد الله تعتمد على المواربة والمداراة ، ويشوبها التردد والالتواء ، أما عبد الرحمن فقد آتخذ من بادىء أمره سياسة واضحة صريحة ليس فيها تردد ولا تراجع ،قوامها التفكير والاعتزام والتنفيذ . وعالن المستأثرين بالسلطة فى الولايات ، والمعتصمين فى القلاع والحصون ، والخارجين عــلى النظام وطاعة القانون ، أنه لا يقنع بدفع الجزية ، ولا يقبل نزاعا على السلطة ، ولا يصبر لخروج على القانون ، وتمرد على الطـــاعة ، وعبث بالأمن والنظـــام ، وأن الذين يردون اليه السلطة فى الكور والأقاليم والمدن ، ويســـلمون له القلاع والحصون ، ويمسكون عن الخروج على النظام والتمرد عــلى الأوضاع القائمة سيظفرون بالعفـــو والرعاية ، أما الذين يستمرون فى عصيانهم ونبذهم للطاعة فانهم سيجدون مقاومة لا تهمـد ، ويصلون حربا مدمرة ، وقد يبدو لأول وهلة أن الكشف عن مثل هذا الاعتزام ربما كان سياسة أملتها عليه رعونة الشباب واندفاعه ، والرغبة العارمة فى تأكيد شخصيته

وفرض ارادته ، وانها ربما كانت مدعاة لاغراء خصومه وأعدائه بحشد جموعهم ، وتوحيد جبهتهم ، فى مقاومته ، ولكن أمرا من ذلك لم يحدث ، الواقع أن سياسة عبد الرحمن كانت سياسة موفقة ، وثمرة فهم دقيق مستوعب لطبيعة الموقف الذى واجهه والطب لعلاج أدوائه ، وتفريج أزماته ، بل كانت السياســة التى تتطلبها روح العصر واتجاهاته ، فقد كان الزعماء الجبابرة البارزون من أمثال سعيد بن جودى وكريب بن خلدون وابراهيم ابن حجاج وأضرابهم قد طواهم الموت ، وغيبهم القبر ، ولم يقم بعدهم من يسد مسدهم ، وكان زعماء المولدين من أمثـــال ابن حفصون وابن مستنة وغيرهما قد علت أسنانهم ، ونالت من قوتهم ومضاء عزمهم الشيخوخة ، وفترت الحماســة للثورة ، وأعقب جيل الثورة والعصيان جيل جديد لم يعرف سطوة الوالى ولا عسفه ، ولم يجرب تحكمه واستبداده ، وانما عانى فى مرارة عهد الثورة وما سببته من الحروب التى أفنت الحرث والنسل ، وأتلفت الحالة الاقتصادية ، وروعت النفوس وحالت بينها وبين الشعور بالأمن والطمأنينة ، وكان الشـــعب قد مل الفوضى والاضطراب ، وضاق ذرعا بمثيرى الشغب واللصوص وقطاع الطرق ، ولم يسفر احياء النزعة القومية عن طرد العرب المغيرين والبربر ، وانما وسع شقة الخلاف بين المسيحيين والمسلمين وكان سكان المدن بوجه خاص يتطلعون الى عهد يصفو فيه الجو وتنقشع الغيوم ، ويستطيعون فيه مباشرة أعمالهم ، دون أن يمســهم ســوء ، أو ينال أسراتهم مكروه ، وكان فى سلوك الأمير عبد الرحمن ومواقفه وكلماته وملامح وجهه وسماته مايدفع الى الثقة به ، ويغرى بتصديق وعـــوده ، والعطف على آرائه وترجيحها .

وكان ابن حفصون كبير الثائرين والذى أتعب الأمراء السـابقين قد نبذ الاسلام وعاد الى مسيحية أجداده ، وبذلك

فقدت ثورته ناحية هامة من طابعها القومى ، وفارقه كثير من المولدين ، وهم الذين اعتنقوا الاسلام من سلالة الاسبانيين ، وانفضوا من تحت رايته والإسبانيون سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين معروفون بشدة تمسكهم بالعقيدة التى يدينون بها .

ولم تمض أسابيع قليلة على توليه الامارة حتى بعث حملته الأولى الى المناطق الثائرة بقيادة حاجبه بدر ، فاستخلصت استجة فى ٣١ ديسمبر سنة ٩١٢ م (٣٠٠هـ) ودخلها الحاجب بدر والوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وكان أول موضع افتتح فى عهده ، وضبطت المدينة وهدم سورها ، وبقى أحمد بن محمد الوزير بها ، ومسكنا لأهلها ، وولى عمالتها حمدون بن بسيل .

فى شهر شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو ، وكانت قد مضت سنوات لم ير الجند فى أثنائها أميرا يتصدى للقيادة ، فلما برز أمامهم الأمير عبد الرحمن كان لظهوره أثر محمود فى اثارة الحماسة وجلب الثقة ، واتجه عبد الرحمن بالجيش الى كورة جيان فى جنوب غربى الأندلس حيث كانت الثورة مشبوبة اللهيب وحيث كان نفوذ الثائر العنيد ابن حفصون سائدا ، وحيث كانت المدن والحصون فيما بين رندة ومالقه خاضعة لسيطرته ، وأرسل عبد الرحمن بعض قواته لانقاذ مدينة رية التى كان يهددها ابن حفصون ، وكان قد بلغ عبد الرحمن أنه قد طمع فى الاستيلاء عليها ، فاستولت عليها وأمنتها ، وقصد عبد الرحمن الى الحصون والقواعد الثائرة فاحتل حصن المنتلون وحارب فيه سعيد بن هذيل حتى افتتحه وأنزل سعيد من الحصن وأمنه وولى الحصن من رجاله محمد بن عبد الوهاب وتقدم الى حصن شمنتان فاستأمنه عبيد الله بن أمية المعروف

بابن الشالية واسحق بن ابراهيم صاحب حصن منتيشــــة وعكاشة بن محصن صاحب وادى بنى عبد الله وسلمة بن عوام صاحب بجيلة ، ومنذر بن حزم صاحب بخنوبرة ، وأفلح بن عروس صاحب بكور ، وفحلون بن عبد الله صاحب سسانة ، وكلهم نزلوا عن معاقلهم اليه ، وأذعنوا له بالطاعة فعفا عنهم وأخلى منهم تلك المعاقل والقلاع ، وقدم أولادهم ونســاءهم الى قرطبة ، واستعمل فى الحصون ثقات رجاله ، واســتنزل عبد العزيز بن عبد الأعلى من حصن الشـــارة ، ودحون بن هشام .

ثم انتقل الى كورة البيرة ، فلما احتلهـــا تداعى أهـــل حصون تاجلة وبسطة ومربيط والبراجلة والاسناد الى النزول والطاعة ، وأخلوا حصونهم ، فأحكم الناصر أمر ذلك الجانب كله ، وضبط المعاقل برجاله ، ثم انتقل الى حصن وادى آش فأخلى أكثرها رهبة منه ، ثم نزل على حصن فنياية بقرب وادى آش ، وكان فيه شيعة ابن حفصــون ، فامتنعوا من النزول ورجوا الاعتصام بوعورة الحصن ، فأحاطت العســاكر بهم ، وأضرمت أرباضهم ناراً ، فضرعوا فى قبــــول الانابة على أن يسلموا من كان عندهم من شيعة ابن حفصون ، فأجيبـــوا الى ذلك ، وقبض على أصحاب ابن حفصون وشد وثاقهم .

وتوغل عبد الرحمن بعد ذلك فى شـــــعب جبل الثلج (سيارانفادا) وهو وعر يلقى السائر فيه مشقة وعناء ، فجازه مع جيشه وافتتــح ما هنالك من المعاقل والحصون التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واتصل به أن ابن حفصون أقبل فى جماعة من أصحابه الى حاضرة البيرة طامعا فى انتهاز الفرصة فأخرج الناصر قائده عباس بن عبد العزيز نحوه ، فلما قرب من مدينة غرناطة أقبل ابن حفصون لما كان رجاه وطمع فيه ،فخرج

أهل البيرة واثقين بالمدد الذى وردهم والقائد الذى جاء للدفاع عنهم ، وقتلوا جماعة من رجال ابن حفصون وأسروا عمر بن أيوب حفيده ، وجرح أحد أولاده جراحا أثخنته •

وتقصى الناصر ما كان بقى من معاقل تلك الجهـــة حتى احتل حصن شبيلش ، وكان من أعظم حصون ابن حفصـــون منعـــة وأصعبها مراسا وأوعرها مكانا ، وكان قد لجأ اليه الذين فروا من الحصون المتقدمة ، قد حاصرهم عبـــد الرحمن حتى نادوا بالطاعة ، وضرعوا فى قبول الانابة ، وأسلموا أصـــحاب ابن حفصون الذين كانوا عندهم فأمر بضرب أعناقهم •

تم أم مدينة شلوبينية ، وفعل فيها مثل ما فعل فى المدن التى تقدم ذكرها ، وضبط برجاله كل حصن إفتتحه ، وانحسم الداء فى كورة البيرة ، وتألفت الكلمة ، واستقامت الطاعة •

وصدر قافلا عن طريق حصن شنت اشتيبن وحصـــن ابنة فراطة ، وكانا قد أضرا بأهل غرناطة ، وحاضرة البيرة ، وهما فى غاية الحصانة والمنعة ، فنزلت الجيـــوش عليهمـــا وأحدقت بهما ، وحوربا أشد محاربة وأنكاها ، وبعد الاستيلاء عليهما شحنهما برجاله ، وقفل راجعا الى قرطبـــة بعـــد أن استوفى اصلاح أمور كورة جيان والبيرة وماوالاهما ، وقضى فى هذه الغزوة اثنين وتسعين يوما • وهكذا كانت هذه الأشـــهر الثـــلاثة كافية لاعادة الســـلام والهـــدوء والاستقرار الى كورتى البيرة وجيان ، وتطهيرهما من اللصوص وقطاع الطرق العابثين بالأمن والمتحدين لسلطة الدولة •

واجتذبت اشبيلية بعد ذلك اهتمامه ، وكان عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج قد خلف أباه ابراهيم بعـــد وفاته فى أشبيلية واستولى أخوه محمد على قرمونة ، ومات عبد الرحمن

في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) فاجتمع أهل اشبيلية على تقديم ابن عمه أحمد بن مسلمة وكان من الشجعان المقاديم ، وكان محمد قد تطلع الى الاستيلاء على الحكم فى اشبيلية ، ولكنه أخفق فى ذلك فقد أظهر ميلا الى الاستبداد والتحكم وأهل قرطبة كانوا يريدون أن يكونوا أحرارا ، وفضلا على ذلك فانه كان قد اتهم بدس السم لأخيه عبد الرحمن ، وعز عليه أن تفلت من يده حيازة اشبيلية وفى الوقت نفسه لم يكن عبد الرحمن راضيا عن حكم أحمد بن مسلمة لمدينة اشبيلية ؛ لأنه لا يتفق مع أهدافه وخطته ، فأخرج اليها جيشا يقوده الوزير أحمد ابن محمد ابن حدير فحاصرها حصارا شديدا ، ووجد أحمد ابن مسلمة أنه مضطر الى التماس نصير يعاونه فى مقاومة جيش الأمير عبد الرحمن ، وتقرب من ابن حفصون لانقاذ الموقف ، وحضر ابن حفصون ولكن الحظ كان قد تخلى عنه ، فقد حاول مهاجمة جيش الأمير عبد الرحمن الذى أقام معسكره على الشاطىء الأيمن من نهر الوادى الكبير ولكنه منى بهزيمة شديدة اضطر بها الى العودة الى ببشتر تاركا الاشبيليين ليدبروا أمورهم بأنفسهم ، وأدرك ابن مسلمة ومن معه من أعيان المدينة أنه لا فائدة من الاستمرار فى المقاومة وبدأوا مفاوضات مع القائد بدر الذى جاء لانهاء الحصار ، وحصلوا منه على وعد بأن الأحوال فى المدينة ستظل كما كانت فى عهد بنى حجاج ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وكان محمد ابن ابراهيم بن حجاج يحرص على أن يفيد من سقوط اشبيلية ويحل فيها مكان أخيه ، وساءه أنه لم يدع الى المدينة فسار الى قرمونة متذمرا ناقما ، وفى طريقه اليها استولى على قطيع من الغنم لأحد رجال قرطبة ، واعتصم بقلعته معتزما أن يتحدى سلطة الأمير ، وتناول عبد الرحمن الأمر فى هدوء ورفق ، وأرسل اليه أحد رجاله ليبين له فى لين

مقترن بالحزم أن زمن استيلاء الأعيان والزعماء على مايملك الناس قد ولى ، وأن عليه أن يرد القطيع الى صاحبه ، فأعاد القطيع لصاحبه ، ولكنه لم يستطع أن يدرك بصورة واضحة أن الزمن قد تغير وكان قد علم أن جيش عبد الرحمن قد هدم أسوار مدينة اشبيلية ، فزين له وهمه أنه يستطيع أن يهاجم المدينة بغير انذار ويستولى عليها ، ولكن هذه الخطة الرعناء لم تنجح ، ورأى عبد الرحمن أن يوفد اليه رسولا يحذره عاقبة الاسترسال فى الخلاف ويبين له أن أفكاره غير متمشية مع روح العصر ، واختار عبد الرحمن لهذه المهمة قاسم بن وليد الكلبى ، وكان من أصدقاء محمد بن حجاج المقربين ونجح قاسم فى مهمته ، ووعد محمد بالحضور الى قرطبة ولكنه اشترط أن يترك نائبه فى قرمونة ، وقبل عبد الرحمن هذا الشرط ، وجاء محمد الى قرطبة ، فرحب الأمير عبد الرحمن بلقائه وقدم له ولرجاله هدايا ثمينة، ومنحه لقب وزير ودعاه الى مصاحبته فى غزوة جديدة كان يتأهب للقيام بها .

وكان عبد الرحمن قد عقد العزم على غزو كورة ريه والجزيرة ، وكان أول مقصده حصن طرش ، وحصر من كان فيه وأقام عليه خمسة أيام ، ثم أبقى عليه من يحاصره ، وتنقل الى حصون ريه ومعاقل ابن حفصون يتتبعها معقلا معقلا ، وأوقع بابن حفصون والذين حشدهم فى حصن طرش وقيعة عظيمة ، وألفيت لابن حفصون مراكب فى البحر كانت تميره من العدوة فأحرقها جميعها ، وأسرع أهل فج وسيم وقلبيرة وسائر ما فى أحواز الجزيرة الى الدخول فى الطاعة ، فقبلهم الناصر وأمنهم ، وانتقل الى كورة شذونة ، ثم الى كورة مورور حتى أوفي على مدينة قرمونة فاحتلها ، وكان حبيب بن سوادة نائب محمد بن حجاج بها قد أظهر الخلاف بعد ذهاب محمد

الى قرطبة فنازلته جيوش عبد الرحمن وحاصره عشرين يوما واضطره الى التسليم فأمنه ، وسأله أن يمهله لانتقال أهله وثقله الى قرطبة فلم يرهقه من أمره عسرا ، وقفل الى قرطبة واستتم فى غزواته اثنين وثمانين يوما ، وكان عبد الرحمن قد علم أن محمد بن حجاج هو الذى أغرى حبيب بن سوادة بالثورة فى قرمونة فأمر بالقائه فى السجن ، وجرده من الوزارة ، ولما منح حبيبا الامان أمر باخراج محمد بن حجاج من السجن ، ولكنه لم يستمتع بحريته طويلا فقد قضى نحبه فى سنة ٩١٥ (٣٠٣) وكان آخر من ظهر على مسرح التاريخ من بنى حجاج .

وفى أواخر سنة ٣٠٢ (٩١٥ م) أصاب الأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وشملت المحنة القواعد والثغور وبلغت الحاجة بالناس مبلغا لا عهد لهم بمثله ، ووقع الوباء وكثرت الموتى فى الفقراء حتى كاد يعجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر على المساكين وصدقات الميسورين من رجاله ، وكان الحاجب بدر أكثرهم صدقة وأعظمهم بماله مواساة ، ولم تمكن هذه الأحوال القاسية الناصر من القيام بالغزو ، ولكنه أخذ بالجد والحزم فى ضبط أطرافه ، ودفع عادية الأشقياء والمتمردين ؛ اذ كانوا مع استيلاء الجوع وشدة الحاجة يهاجمون من اقترب منهم .

ولما خفت وطأة هذه المجاعة استأنف عبد الرحمن جهاده فسير قواته الى كورة تدمير والى مدينة لبلة فى سنة ٣٠٤ هـ ووطد سلطته فى تلك الأنحاء بحيث استطاع بعد ذلك أن يوجه غزواته الى الشمال لمهاجمة الدول المسيحية وأراحه الموت فى سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧) من أقوى أعدائه مراسا ، وأشدهم طغيانا ، وهو عمر بن حفصون ، ويقول

عنه الأستاذ عبد الله عنان بحق « (١) كان ابن حفصون فى الوقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى تدين بالولاء لحكومة قرطبة، وفى مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى اليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الأسبان الذين أسلموا منذ الفتح وعدوا جزءا من الأمة الأندلسية» . ويقول عنه دوزى : «لم يكن من حظه أن يحرر بلاده ، أو أن يوجد أسرة ولكنه سيظل ماثلا فى صورة البطل الحق الذى لم تخرج أسبانيا مثله منذ أيام قيرياژاس ـ الراعى ـ الذى أقسم بأن يخلص بلاده من نير الرومان » وكان قيراياژاس هذا قد تحول من راع الى لص وقاطع طريق ، وأخيرا صار قائد جيش ظل يقاوم الرومان مقاومة عنيفة من سنة ١٤٧ الى سنة ١٣٩ قبل الميلاد ، وقد فقد ابن حفصون قبل موته الكثير من أنصاره ، وضعف شأنه وصار لا يطلب أكثر من السلامة والأمن ، وكان يخلو بنفسه بكنيسته فى ببشتر وعانى كثيرا من مرض الايمفزيما أو غدد خلايا الرئتين ، ودفن حسب تقاليد أجداده ممدودا على ظهره وذراعاه فى صورة صليب على صدره ، ووجهه موجه نحو الشرق ، وانتشر خبر موته فى كل أنحاء أسبانيا .

ويقول ابن عذارى عن موته(٢) « وفى هذه السنة هلك عمر بن حفصون عميد الكافرين ورأس المنافقين ، وموقد شعل الفتنة وملجأ أهل الخلاف والمعصية ، فعد هلكه من أسباب الاقبال وتباشير الصبح وانقطاع علق المكروه » .

وقد ترك ابن حفصون أربعة أولاد ، تولوا مكانه رياسة القواعد الغربية ولا سيما ببشتر حيث قام ولده جعفر

(١) تراجم اسلامية شرقية وأندلسية صفحة ١٤٥ .
(٢) من البيان المغرب الجزء الثانى صفحة ٢٥٦ .

وأولاده الآخرون هم سليمان وعبد الرحمن وحفص وقد
ورث جعفر وسليمان وحفص شجاعة أبيهم ولكنهم لم يرثوا
مواهبه ، أما عبد الرحمن فلم يكن ميالا الى الحرب والتمرد
وانما كان صاحب كتب وقد صار وراقا فى قرطبة بعد
سقوط أسرته وذهاب سطوتها ونفوذها .

وفى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) عزا الناصر بنفسه
مدينة بلدة من كورة رية ، وترك فريقا من رجاله فى أرضها
وارتحل الى حصن دوس امانتش فنازله وحاربه حتى
افتتحه ، وعاد الى حصن بلدة وحاصرها ، وتداعى من كان
بها من المسلمين الى النزوع بأنفسهم وذراريهم، وذكروا له أنهم
كانوا مغلوبين على أمرهم ، فأمنهم الناصر ، وقاتل المسيحيين
فى المدينة حتى ظفر بهم وقتلوا جميعا ، وملكت المدينة
وندب فيها الرجال من أتباعه ، ثم انتقل الى حصون
رية ، يتقصاها معقلا معقلا ، ويفتتح ما مر به منها ، ثم نزل
على جبل ببشتر فحاصره وشدد الحصار فسأله جعفر بن
عمر بن حفصون قبض رهائنه استيثاقا من طاعته على أن
يؤدى ما فرض عليه من الجباية،فقبل الناصر ذلك ، وقبضت
رهائن جعفر وشيعته ، وعاد الناصر من جبل ببشتر الىقرطبة
واكتفى بذلك فى هذه الغزوة لاعتقاده أن جعفر بن عمر بن
حفصون لا يزال قويا وان مناعة حصن ببشتر تجعل محاولة
الاستيلاء عليه جد شاقة ، ورأى جعفر أن ارتداد والده عن
الاسلام واعتناقه هو وأسرته المسيحية لم يكونا من حسن
السياسة ، وانه بذلك خسر ولاء المسلمين الأسبانيين له وفقد
عنصرا هاما من أنصاره ، وقد صار يعتمد بعد ذلك على
معاضدة المسيحيين واخلاصهم له ، وحاول جعفر أن يسترد ولاء
المولدين المسلمين بالعودة الى اعتناق الاسلام ، وأغضب بذلك
أنصاره من مسيحيى الأسبانيين وجعلهم يأتمرون به ، وعلم

بذلك أخوه سليمان ، ولكنه تجاهل ذلك وأغضى عنه،وأسفرت المؤامرة عن اغتيال جعفر ، وخلا الجو لسليمان ليقوم مقامه في سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) وكثرت الخلافات وافترقت الناس شيعا وأحزابا في ببشتر ، وحدثت بها ثورة وطرد منها سليمان ، ولكنه احتال بعد ذلك للعودة اليها ، ونجح في ذلك وانتقم من الذين عملوا على ابعاده ، ولكنه لم يعمر طويلا ، فقد قتل في مناوشة مع جند عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) وخلفه أخوه حفص ولكن نهاية سيطرة أبناء ابن حفصون كانت قد حانت ، ففي سنة ٣١٩ هـ (٩٢٧ م) حاصر عبد الرحمن ببشتر وعزم على ألا يرفع عنها الحصار حتى تفتح أبوابها له ، وأطبق عليها من كل ناحية ، وظل حفص يجاهد مدة ستة أشهر لم يجد بعدها متحولا عن التسليم ، واحتل جيش عبد الرحمن المدينة ونقل حفص مع باقي أفراد أسرته الى قرطبة ، ولاذت أخته أرجنتيا بالدير ، وكان يمكن أن تعيش خاملة الذكر مجهولة الشأن ، ولكنها كانت شديدة التعصب ونزاعة الى الاستشهاد ، وأثارت السلطات الحكومية بتفاخرها بأنها مسيحية ، ولكنها في نظر القانون كانت تعد مسلمة كما كان والدها حينما ولدت ، ولذلك حكم عليها بالقتل لأنها ارتدت عن الاسلام ، ولكنها واجهت الموت في ثبات وشجاعة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) .

وبعد مضي شهرين على تسليم ببشتر حضر عبد الرحمن الى المدينة التي تحدت هجمات الأمراء طوال نصف قرن وجال في أقطارها (سنة ٣١٦ هـ) (٩٢٨ م) وعاين من شرفها وحصانتها وعلو مرتقاها وانقطاع جبلها من جميع جهاته ما أيقن معه ألا نظير لها في الأرض حصانة ومنعة واتساع قرارة ، فحمد الله على ما يسر له من فتحها والاستيلاء عليها ،

والتزم الصوم أيام مقامه بها ، ثم دبر بنيان قصبتها ، على أحسن ما دبره وأحكمه فى غيرها ، وفرق رجاله على هدم كل حصن كان حواليها وعلى الديارات الخارجة عنها ، ويصف لنا الحميرى فى « الروض المعطار » حصن ببشتر بقوله « حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلا ، وهو حصن تزل عنه الأبصار ، فكيف الأقدام ، على صخرة صماء منقطعة لها بابان يتوصل الى أعلاهما من شعب يسلكه الراجل الخفيف وطريقه عند الطلوع والهبوط على النهر ، وأعلى الصخرة سهلة مربعة ذات مياه كثيرة تقطع الحجر ، فينبعث الماء العذب وينبط الآبار بأيسر عمل وكد ، وحصن ببشتر كان قاعدة العجم ، كثير الديارات والكنائس والدواميس ، ولهذا الحصن قرى كثيرة ، وحصون خطيرة ، وما حوله كثير المياه والأشجار والثمار والكروم وشجر التين وأصناف الفواكه والزيتون (١) » .

وما لقيه عبد الرحمن وأسلافه من شر ابن حفصون وطول تمرده على سلطتهم بعث عبد الرحمن على أن ينبش قبره وقبر ابنه ، وشهد ذلك عامة الفقهاء الغازين معه ، واستخرجا من لحودهما ، ونقلت أعظمهما الى باب السدة بقرطبة ، ورفعت على جذوع عالية لتكون عظة للناظرين .

واستنزل الناصر أهل حصن شنت بيطر وحطرون وغيرهما من المعاقل ولم يبق لأتباع ابن حفصون من النصارى فى تلك الناحية حصن ولا معقل ، وعادت كورة رية على كثرة ما فيها من الحصون المانعة والمعاقل القائمة ليس فيها ثائر

(١) من كتاب صفة جزيرة الاندلس المنتخبة من كتاب الروض المعطار للحميرى صفحة ٣٧ .

ممتنع ولا عدو محذور ، ونقل الناصر من كان يرى نفسه تائقة الى الفتنة الى قرطبة ، وقدم وزيره عبد الحميد بن بسيل الى كورة شذونة لهدم حصونها ، وأمر باستنزال من كان فيها من المقاتلة ، وافتتح قائده أحمد بن اسحق القرشى مدينة لقنت من كورة تدمير ، ومدينة قليوشة ، واستنزل الثائرين من معاقل بلنسية وأخرج أحمد بن الياس القائد غازيا الى كور الغرب فافتتح مدينة ماردة ومدينة شنترين بلا حرب ، ونزلوا اليه بالأمان ، فشملهم عفو الأمير عبد الرحمن واحسانه .

وفى سنة ٣١٧ (٩٢٩ م) سار عبد الرحمن لغزو مدينة بطليوس ومحاربة ابن مروان الجليقى الذى كان مستوليا عليها ، وبعد أن حاصرها عشرين يوما أبقى عليها قائده أحمد ابن اسحق ، وانتقل الى جهة ماردة ، فأصلح الأحوال بها وولاها من رجاله محمد بن اسحق ، وعاد الى محاصرة بطليوس ، وشدد الحصار واستبقى أحمد بن اسحق فى جيش كثيف ورجال منتقين وعدة كاملة ، وأمره بالتشدد فى الحصار والاستبلاغ فى مضايقة المحصورين .

وانتقل الى مدينة باجة ، وأحدقت بها عساكره ، وطلب من المستولى عليها عبد الرحمن بن سعيد بن ملك التسليم ، ودعاه الى الطاعة ، ولكنه أبى ولج فى العصيان ، فنصبت عليه المجانيق وحورب أشد محاربة ، وقتل من رجاله عدد كثير ، وهدمت بعض أبراج المدينة ، ولم يجد عبد الرحمن ابن ملك مفرا من الاستسلام والخضوع لأمر عبد الرحمن والنزول على حكمه ، وأخرج هو وأسرته من المدينة ونقلوا الى قرطبة ، ودخل الناصر المدينة ، وولى عليها حاكما من قبله وأكثف له الجمع والعدة ، وأمره ببناء قصبة يتفرد بها ويسكنها .

وانتقل من باجة قاصدا مدينة اكشبونبة بقرب الساحل الغربى ، وافتتح فى طريقه اليها حصن الوقاع وأصاب فيه لخلف بن بكر صاحب أكشونبة أموالا وعدة وسلاحا لغنم ذلك جند عبد الرحمن ، وتلقى رسل خلف بن بكر مظهرا للانابة ، وملتزما للطاعة ، واظهر أهل ناحيته رغبة شديدة فى استبقائه حاكما عليهم ، والتزام دفع الجباية الكاملة ، ووصفه سكان المنطقة بالسيرة الحسنة ، فرأى أن من حسن السياسة وصواب الرأى أن يستجيب لرغبتهم ، وعهد اليه بحسن السيرة والرفق بالرعية وألا يقبل نازعا ، ولا يكتنف هاربا ، فالتزم جميع ما أمره به ، ووقف عندما حده له . وعاد الناصر من مدينة أكشونبة الى قرطبة .

وفى سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) كان افتتاح مدينة بطليوس وكان صاحبها وهو من سلالة ابن مروان الجليقى قد احتمل الحصار مدة طويلة حتى فنى رجاله ورأى من عبد الرحمن عزما لا يعتريه فتور ، وجدا لا طاقة له به ، فاستأمن ، وقبل عبد الرحمن مصالحته ، ووسعه من سماحة عبد الرحمن ماوسع أمثاله ، ونقل ابن مروان وأصحاب الشوكة من أنصاره الى قرطبة مع أسرهم وأغدق عليهم عبد الرحمن وملك المدينة وولاها عماله .

ولكى يستكمل عبد الرحمن ما كان فى حيازة أسلافه كان عليه أن يعمل على استرداد طليطلة وقد كانت طليطلة دائما مصدر متاعب لأمراء الأندلس ، ورأى عبد الرحمن أن يبدأ باتباع سياسة حسن التفاهم والملاينة ، فأرسل اليها فريقا من فقهاء مصره الذين يثق بهم ليدعوا أهلها الى الطاعة ، ويحاولوا ادخالهم فيما صارت اليه الجماعة ؛ اذ كانوا لا يؤدون جباية ولا يلتزمون طاعة ولا يتناهون عن العصيان ، فلم يصلح معهم

هذا الأسلوب واستمتاعهم الطويل بالحرية جعلهم يأبون أى انتقاص لها ، فلاذوا بمعاذير المخادعة ، وجاوبوا عبد الرحمن اجابة تنم على عـدم استعدادهم لقبول الطـاعة ، ولم يتوان الناصر ــ جريا على عادته ــ عن اعتزام غزو مدينتهم وأخـذ الأهبة لمحاصرتها حتى يرجع أهلها عن غيهم ، وينزلوا على أمره ، ففى سنة ٣١٨ (٩٣٠) قدم الوزير سعيد بن المنذر فى جيش كبير الى مدينة طليطلة ، وأمره عبـد الرحمن بمحاصرة المدينة حتى يلحق بجيوشه ، فخرج اليها سعيد وأغذ السير نحوها حتى نزل بساحتها وأخذ فيما حد له من محاصرتها بأبلغ عزم وأتم حزم ، وفى الشهر التالى قصد عبد الرحمن مدينة طليطلة فلما اقترب فى طريقه اليها من حصن مورة الذى اتخذه أهل طليطلة للدفاع عن مدينتهم أمر القائم بالدفاع عن الحصن بالتسليم ، وأنذره وخـوفه ، فلم يجـــد بدا من التسليم ، ونزل عن الحصن ، وأمر الناصر بضبط الحصن ، وتقدم بعد ذلك بجيوشه الى محلة جرنكش القريبة من طليطلة ، وأشرف من هـــذه المحلة على السهل المنبســط حول طليطلة ونهـرها وكرومها ، ودبر رأيه فى أمكن المواضع من محاصرتها وأقرب الجهات الى الأخذ بمخنق أهلها ، فرأى أن النزول بمحلة المقبرة على باب المدينة أبلغ فى النكاية ، وأشد فى المضايقة ،فانتقل اليها ، وأخذ فى مضايقة العصاة والنكاية بهم بما لم يخطر لهم على بال .

وأقام بهذه المحلة سبعة وثلاثين يوما يوالى فيها النكاية بهم ، ويخرب قراهم ، وينتسف زروعهم ويقطع أشجارهم ، ثم أمر بالبنيان فى جبل جرنكش لمدينة سماها بمدينة الفتح وعهد الى الوزير سعيد بن المنذر بالاشراف على بنيانها ، وأمره بنقل الأسواق اليها والتمدين لها لتكثر مرافق أهل العسكر بها ، وعهـد الى محمـد بن سـعيد المنذر بالاشراف على باب

القنطرة مع فرقة من الجند ، وأوصاه بالاستبلاغ فى محاربة القوم .

وقدم على الناصر بمحلته على طليطلة صاحب حصن قنيلش وصاحب حصن الفهمين معتصمين بطاعته ، فأمر بنقلهما الى قرطبة والتوسع عليهما ، وقفل من طليطلة الى قرطبة .

واستمر حصار طليطلة أكثر من عامين ، وظن أهلها ان استعانتهم بملك ليون قد تنقذ الموقف ، وتساعدهم فى رفع الحصار ، ولكن جيش عبد الرحمن هزم جموعه ، ورد هجومه ، وأرغمتهم المجاعة فى آخر الأمر على فتح أبواب مدينتهم وعاذوا بصفح عبد الرحمن ، وضرعوا اليه فى اغتفار ذنوبهم فحضر فى سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) لاستنزالهم وتوطيد طاعته فى المدينة ، وتلقاه قبل نزوله بالمدينة ثعلبة بن محمد ابن عبد الوارث القائم بالدفاع عنها معترفا بخطئه ومستقيلا من زلته ، فعفا عنه الناصر، وشمله عفوه ، وأمن أهل طليطلة ورفع عنهم الحصار ، فشعروا بالأمن بعد الخوف ، والسعة بعد الضيق ، وركب عبد الرحمن الى المدينة ودخلها وجال فى أقطارها ، ورأى من حصانتها وامتناع قاعدتها وانتظام الجبال فى داخلها وامتناعها من كل الجهات بواديها ووعرها وكثرة سكانها جعله يشكر الأقدار التى هيأت له مغالبة كل هذه الصعاب ، واجتياز هذه العقبات ، وعلم أنه لولا ما أخذ به نفسه من الجد والعزم فى أمرها لما استطاع أن يستردها مع حصانتها ومناعتها وما اعتاده أهلها من موالاة الدول المسيحية المجاورة لها ، والاستعانة بهم فى الخروج على طاعة أمراء الأندلس ، ودبر فيها بناء محكما متقنا ليكون مستقرا للقواد الملازمين فيها ، وملأها رجالا وعدة وسلاحا ، وأمر بهدم

ما وجب هدمه فى المدينة،وأكثر من التجوال فى أنحائها ليهذب فيها ما أراده ، وكان سرور عبد الرحمن بالاستيلاء على المدينة عظيما كسروره يوم استيلائه على حصن ببشتر ، وكان شكره لله الذى مكنه من ذلك حارا وكثيرا .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يخضع العرب والبربر والمولدين والمستعربين ويرغمهم على الطـــاعة ، ويرد للدولة الأموية بالأندلس سلطتها التى عصفت بها عواصف الثورات، وكادت تقتلعها وتعفى عليها ، وعاد الأمن والاستقرار الى ربوع الأندلس ، وكان فى ضياع سلطة زعماء العرب وارغامهـــم على الطاعة عزاء للمولدين والمســـتعربين فقد رأوا فيها نوعا من الانتصار لقضيتهم ، فقد كان جانب كبير من ثورتهم لمقاومة تعالى العرب عليهم وعنفهم فى بعض الأحيان بهم ، أما بعد أن استردت الدولة هيبتها ، واستعادت سيطرتها ، فقد تساوت الأقدار ، وكانت المســاواة فى المعاملة مما ساعد على استعادة الدولة وحــدتها وسهل امتزاج أجناس الرعيــة المختلفة ، وأصولها المتباينة ، ولم يكن ذلك كســـــبا قليلا للمولدين والمستعربين ، وكأنهم ظفروا بجانب كبير من الاستقلال الذى كانوا يطمعون فيه ، والحرية التى تطلعوا اليها فاستراحت نفوسهم وهدأت ثورتهم .

عبد الرحمن الناصر وتحويل الامارة الأندلسية الى خلافة

كان أمراء الأندلس الأمويون منذ عهدعبد الرحمن الداخل يكتفون بلقب الأمير وابن الخلائف ، ولم يقدم أحد منهم على اتخاذ لقب خليفة وأمير المؤمنين تجنبا لاثارة خلافات ومشكلات قد يجدون صعوبة فى معالجتها فى حين أن عندهم من المشكلات المعقدة والخلافات المتعبة ما يكفى ويزيد على الحاجة ، وماذا عليهم من فقدان لقب قد يجلب المتاعب وهم مستمتعون بالسلطة الكاملة والسيطرة التامة ، وفضلا على ذلك فانهم كانوا يرون الخليفة العباسى أولى منهم بهذا اللقب لأنه يضم فى حوزته الحرمين الشريفين وبلاد العرب ولكن فى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩) م كانت الظروف قد تغيرت ، فقد استطاع عبد الرحمن منذ ولايته أن يخمد الكثير من الثورات ، ويسترد سلطة الأمراء التى انتزعها منهم الثائرون المتمردون ويعيد الى أكثر أنحاء امارته الأمن والاستقرار ، وكانت الدولة العباسية قد دب فيها الضعف واستأثر موالى الخليفة العباسى فى بغداد بالسلطة حتى أصبح الخليفة ألعوبة فى أيديهم ، وبلغ عبد الرحمن أن مؤنسا المظفر قتل مولاه الخليفة العباسى المقتدر سنة ٣٢٠ هـ وكان قد سبق خلعه وازالته عن سرير ملكه سنة ٣١٧ هـ ثم أعيد وجددت له البيعة

ولكنه قتل حينما فسدت الحال بينه وبين مؤنس الذى كان قد سعى فى اعادته الى الخلافة ، وبوجه عــام لم يكن لأكثر الخلفــاء العباسيين خلال القرن الثالث الهجرى سلطة مطلقة ولا مكانة ثابتة موطدة ، وعاصر هذه الفترة قيام الدولة الفاطمية وتلقب القائمون بأمرها بألقاب الخلافة وامارة المؤمنين ،ومعنى ذلك أن الخلافة تعددت فماذا يمنع من أن يكون هناك ثلاثــة خلفاء ما دامت الخلافة قد صارت فى خليفتين ، وامارةالأندلس أقدم عهدا ، وأرسخ قدما ، وأدق نظاما من الخلافة الفاطمية الناشئة . فأميرها ان لم يكن أحق بلقب الخليفة وأمير المؤمنين من الخليفة الفاطمى فهو على الأقل جدير بهذا اللقب لاتســاع ملكه وثبات سيطرته ، ومما زاد عبد الرحمن تعلقا بالحرص على احراز هذا اللقب التنافس الذى قام فى المغرب بينه وبين الدولة الفاطمية فان حمل لقب الخلافة له من غير شك تأثير فى نفوس قبائل البربر الذين كان عبد الرحمن يســتعين بهم فى مدافعة الخطر الفاطمى ، ولم يكن من المناسب أن تظل الأندلس تنافس الخلافة الفاطمية وهى امارة ، وادراك الناصر لمدى قوة هــذا اللقب فى التأثير الروحى على الجماعات يدل على بعــد نظره الســـياسى ، وعمق فهمه لنفسية الجماعات ، ويقول المقرى » (١) الناصر أول من تسمى بأمير المؤمنين من بنى أمية بالأندلس ؛ لأن الدولة عظمت فى أيامه ، حين اختــــل نظام ملك العباسيين بالمشرق وتغلبت عليه الأعاجم ، ولم يتســـم أحد من سلفه بالأندلس الا بالأمير » . ويقول ابن عذارى (٢) « وفى هذه السنة ٣١٦ هـ) رأى الناصر أن تكون الدعوة له فى مخاطباته والمخاطبات عنــه فى جميع ما يجرى ذكره فيــه

(١) من الجز الثانى من كتاب أزهار الرياض صفحة ٢٥٨ .

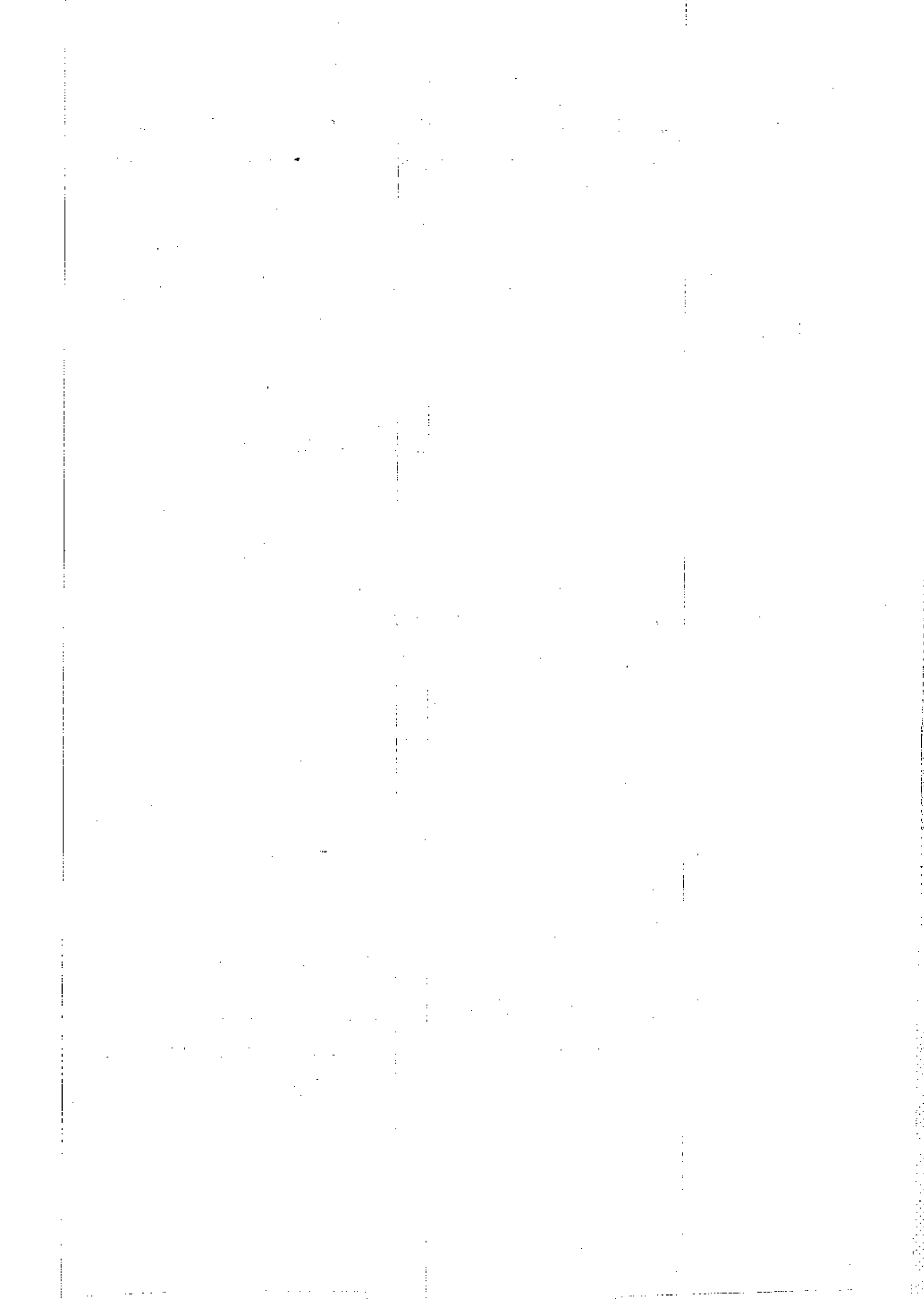
(٢) من الجزء الثانى من كتاب البيان المغرب صفحة ٢٩٧ .

بأمير المؤمنين ، ولما استحقه من هــذا هو له بالحقيقة ولغيره بالانتحال والاستعارة ، فهو أبر أمراء المؤمنين ، والهــداة الفاضلين ، والأبرار المتقين من كل منتخب فى المشرق والمغرب وقائم بالحق ، وسالك لسبيل الهدى والرشد ، فعهد الى أحمد ابن بقى القــاضى صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يــوم الجمعة مســتهل ذى الحجة بذلك ، ونفذت الكتب الى العمال فيه ، ونسخة الرسالة النافذة فى ذلك تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعــد ـ فأنا أحق من استوفى حقه ، وأجــدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ، للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العــالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم الينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولى الانعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ،وخروج الكتب عنا ورودها علينا بذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ،ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واســم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله ، والله المستعان . »

وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة ســنة ٣١٦ ـ وبعد صدور هذا المنشور أصبح الناصر يلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله .



عبد الرحمن الناصر
والخطر الفاطمى

لم تكن ثورة العرب والبربر والمولدين والمستعربين هى الخطر الوحيد الذى هدد الدولة الأموية بالأندلس ، فقد كان هنــــاك خطر مصدره الدول المسيحية فى الشمال مثل دولة ليون ومملكة نافار وغيرهما من الدول والامارات المســـيحية التى تكونت وتزايدت قوة وتماسكا فى القرن الرابع الهجرى ، وفى أواخر القرن الثالث بدأ فى افريقية والمغرب ظهور خطر آخر ، آخذ فى التعاظم حتى شـــغل بال عبد الرحمن الناصر طوال حكمه ، واستلزم بذل جهود جبارة لدفع عاديته ، وهذا الخطر هو ظهور الدولة الفاطميـــــة فى المغرب ، وهى دولة شيعية ، مهد لظهورها وعمل على تكوينها وانشائها دعاة الشيعة الاسماعيلية ، وكان الشيعيون على اختـــلاف مذاهبهم وتباين أهدافهم يرون أن الامامة وهى تشمل القيادة الروحية والزعامة الدنيوية من حق أولاد على ، وقصرها فريق منهم على أولاده من السيدة فاطمة ، والامام فى رأيهم معصوم من الخطأ ، والشيعة الاسماعيلية منسوبة الى الامام اســـماعيل الابن الاكبر للامام جعفر الصادق من سلالة الحسين بن على ، وقد مات اسماعيل فى حياة أبيه ؛ ولذلك ذهب فريق آخر من الشيعة الى صرف الامامة عنه ومنحهـــا لأخيه موسى الكاظم الذى مات بعد أبيه

الصادق ، فصار بذلك وارثا لرسالة أبيه ، وصاحب الحق فى الامامة بعده ، وقد نظم اسماعيل بن جعفر الصادق دعوته الامامية قبل موته مستعينا برجل من أسرة فارسية الأصل وهو عبد الله بن ميمون القداح ، وقد عمل حفيد عبد الله بن ميمون القداح المدعو سعيد الخير على أن يستكمل تنظيم الدعوة الاسماعيلية ويرسل الدعاة الى المغرب لنشرها ، وكان على رأس هؤلاء الدعاة الداعية أبو عبد الله الشيعى ، وعاونه أخوه أبو العباس ، وتسمى سعيد الخير بعبيد الله المهدى ، وقام أبو عبد الله الشيعى بالدعوة له فى المغرب وبذل فى ذلك جهدا كبيرا ، وكان أبو عبد الله رجلا واسع الحيلة ، جم الدهاء ، طبا بأهواء النفوس ، وفى بلاد سادها الجهل ، وملأها استبداد الحكام وعسفهم مثل بلاد المغرب كانت دعوة المهدى تجد أذنا صاغية ، وصدرا رحبا ، وأدخل أبو عبد الله فى روع أتباعه من قبيلة كتامة البربرية أن الدولة العلوية الاسماعيلية ستشرق شمسها من المغرب ، ووضع للكتاميين أحاديث ونبوءات جذابة أشعلت حماستهم ، وشدت عزيمتهم واستطاع بذلك أن يقاوم دولة الأغالبة ، ولما اطمأن الى نجاح مساعيه استدعى عبيد الله المهدى من سلمية من أعمال حمص التى كان مستترا بها ، ولقى عبيد الله فى رحلته من سلمية متاعب جمة استعان على مغالبتها باجادة التنكر والرشى ، وفر بصعوبة من مطاردة زيادة الله الأغلبى حتى وصل الى سجلماسة ، وكانت فى حوزة اليسع بن مدرار ، وقد أكرم وفادة عبيد الله فى بادىء الأمر ، ولكنه حين علم بتزايد قوة عبد الله الشيعى وتغلبه على الأغالبة وازالة ملكهم اعتقل المهدى ، ولم يطلق سراح المهدى الا بعد أن قدم جيش أبى عبد الله الشيعى ، وفر اليسع من سجلماسة ، واسترد المهدى حريته ، وتقلد زمام الأمر وبدأ ظهور الدولة الفاطمية

ويرى الأستاذان : حسن ابراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف أن عبيد الله المهدى من سلالة ابن ميمون القداح ، وأن الامام المستور الحسين الاسماعيلى عهد اليه فى القيام بالامامة على ان يسلمها من بعده للقائم ابنه ، فالقائم هو سليل اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأما عبيد الله المهدى فانه من سلالة القداح، فالمهدى لا يمت الى الأئمة الاسماعيلية بصلة القرابة ، وانما نهض بالامامة بتوصية من الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأن الامام الحسين الاسماعيلى استودع سعيد الخير أو عبيد الله المهدى الامامة ليردها الى ابنه القائم ، والدولة التى أنشأها عبيد الله المهدى تعرف بالدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة بنت رسول الله ، أو الدولة العلوية نسبة الى على بن أبى طالب ، وتسمى أحيانا الدولة العبيدية نسبة الى عبيد الله المهدى ، ويبدو أنه لا اختلاف فى أن الدولة التى أسسها عبيد الله دولة اسماعيلية، وانما الشك فى عبيد الله نفسه ، وهل هو اسماعيلى من سلالة اسماعيل بن جعفر الصادق أو أنه قداحى من سلالة ابن ميمون القداح ، والمرجح عند الباحثين أن الامام الحسين نزل عن امامته طوعا لحجته سعيد الخير بن الحسين بن عبدالله القداح ليردها الى ابنه القاسم القائم حينما بلغ أشده ، ولما خرج عبيد الله المهدى من السجن أعلن أبو عبد الله الشيعى داعيته أنه الخليفة ، وأنه المهدى ، وذهب معه الى رقادة فى آخر سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) وهناك تلقى يمين الولاء من أتباعه. وحينما صار عبيد الله خليفة أظهر شدة ، وفرض طاعة لا تعرف اللين على أتباعه الكتاميين وغيرهم من رعيته ، وساء ظنه بداعيته أبى عبد الله ، وشك فى أمره ، واتهمه بأنه يحاول القاء الشبهة على عصمة الامام المهدى ، ودس اليه من قتله ، وقتل معه أخاه وذلك فى سنة ٢٩٨ هـ (٩١١م) .

وكان احتــلال الفاطميين لتونس وقلبهم دولة الاغالبة خطوة لامتداد نفوذهم شرقا وغربا ، أما فى الشرق فقد أخفقت جهودهم فى الاستيلاء على مصر فى عهد عبيد الله المهدى ، وأما فى الغرب فكانوا يعملون على أن تكون جميع البلاد فى قبضتهم بحيث لا يحــول شىء بينهم وبين المحيط الاطلسى · ولم يكن هناك بد من اخضاع القبــائل الكبيرة فى المغرب مثل قبيلة زناته وغيرها من قبــائل المغرب ، وبالرغم من أن عبيد الله لم يخضع لسلطانه جميع بلاد المغرب ، الا أنه مهــد السبيل للمعز لدين الله بعـــده الذى استطاع أن يوحد بلاد المغرب جميعها تحت لوائه ·

وكان على الناصر أن يحزم أمره ، ويعد الأهبة لمواجهة الفاطميين قبل أن يستفحل أمرهم فيقدموا على غزو الأندلس، وكان من الطبيعى أن يذكر الفاطميون أن العرب قبلهم جعلوا الاستيلاء على المغرب معبرا الى الأندلس ، ورأى الناصر أن من أجدى الســبل فى مقاومة السيطرة الفاطمية التى اجتــاحت تونس وأخذت فى الامتــداد السريع الى عدوة المغرب وهددت شواطىء الأندلس بعث الفتن واشعال نار الخلاف بين قبائل البربر ، ونجــح فى ذلك واستولى على سبتة وطنجة ، وبدأ انشاء أســطول ضخم ليقــاوم سطوة الفاطميين ، وكان ثوار الاندلس يتجهون بأبصارهم الى العدوة ،ويفاوضون الفاطميين، ويأتمرون معهم على حكومة قرطبة ، وقد استولى عبد الرحمن على سبتة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١م) وانتزعها من يد بنى عصام حلفاء الفاطميين ·

وقد اتخذ عبيد الله المهدى من تاهرت بالمغرب الاوسط قاعدة لمهــاجمة المغرب الاقصى ومهــاجمة الادارسة والنفوذ الاموى ، وبدأ قائده مصالة بن حبــوس صراعه العنيف مع

قبائل صنهاجة ، واستولى على حاضرتهم ناكور فى سنة ٣٠٥ وكان استيلاء الفاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع الأدارسة ثم مع الصنهاجيين ، وكان وراء هذا الصراع صراع آخر بين السياسة الاموية والسياسة الفاطمية ، وكان زعماء قبـــائل صنهاجة وولايات المغرب الذين يتعرضون لهـجوم الفاطميين يستعينون بعبد الرحمن الناصر ، ويلوذون بحماه حينما يغلبون على أمرهم ، وحينما استولى القـــائد الفاطمى مصالة بن حبوس على ناكور وقتل رئيســها سعيد بن صالح فر أولاده الى الأندلس ، وأقاموا بمالقة لقربها من بلدهـم ورجائهم العودة اليها، ورحب الناصر بقدومهم، وعهد بانزالهم والتوسع عليهم ، وبعث اليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا اليــه ، وخيرهم فى القــدوم الى قرطبة والمقــام فى مالقة ، فاختاروا المقام بها على بره وحبائه، وكان مصالة قد أستخلف على ناكور رجلا يقال له ذلول وانصرف الى تأهرت ، فافترق عن ذلول من كان معه ، وبقى فى قـــلة من رجاله ، فقصده صالح بن سعيد من مرسى مالقة فقتله وقتل أصحابه ، ولزم ناكور، وهادى عبد الرحمن الناصر بالخيل والجمال، ويوضح لنا هذا مدى مساعدة الناصر للصنهاجيين وأنه كان يهمه أن يكون له حلفـــاء من المغاربة ليكونوا حاجزا يستدفع به شر الفاطميين ، وكان الناصر يقـــدر أنهم أقدر على النجاح فى الاستيلاء على بلاده من أعدائه العباسيين لبعد الشقة ووعورة الطريق بين العراق والأندلس مع قرب المســافة وســـهولة الطريق بين المغرب والاندلس ، ولذلك آمد النـــاصر صالحا بالاخبية والآلات والبنود والطبول ، وفى الوقت نفسه استغل عنصر الكراهة بين الشيعة والســـنية المتـــأصل فى قلوب الصنهاجيين ، وكان من أسباب شدة تعلقهم بالناصر خوفهم على دولتهم وعلى مذهبهم السنى فى الوقت نفسه ، والادارسة

برغم كونهم من أصل علوى رأوا كذلك الاستعانة بالناصر خشية اكتساح الفاطميين لملكهم ·

وقد حاول الفاطميون فيعهد عبيد الله المهدى الاستيلاء على مصر ، ولما أخفقوا فى هذه المحاولة عولوا على قصر جهودهم على بسط سلطاتهم فى المغرب ، ولذلك خرج مصالة بن حبوس قائد جيش عبيد الله المهدى من تاهرت سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠م) واسترد مدينة ناكور من الصنهاجيين ، واتجه الى الادارسة فى فاس ، وكان عليها يحيى بن ادريس وانتصرت عليه جيوش المهدى ، وكان الجيش الفاطمى مكونا من المكناسيين وعلى رأسهم زعيمهم ابن أبى العافية ومن الكتاميين وهم الذين أعانوا الدولة الفاطمية ، ونهضوا بها ، وصار الادارسة فى فاس تحت حماية الفاطميين يدفعون لهم الجزية، ويدينون لهم بالطاعة ، وولى الفاطميون على تلك الناحية موسى ابن أبى العافية صاحب مكناسة ، وفى سنة ٣٠٩ هـ فتح الفاطميون سجلماسة وبذلك صار جزء كبير من المغرب الأقصى خاضعا لسلطانهم ، وفسد ما بين موسى بن أبى العافية وبين الفاطميين وانتظم له الأمر فى المغربين : الأوسط والأقصى وأصبح خطرا على الفاطميين ، ولما ولى المهدى على المغرب الاوسط وتاهرت واليا آخر وهو حميد بن يصال عمل هذا الوالى على أن يشعر موسى بن أبى العافية بقوة الفاطميين ، فأرسل من قبله واليا الى فاس ، ولكن هذا الوالى قتل وحمل رأسه الى موسى ، فأرسله موسى الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان قد بدأ يميل الى ناحيته ويناصره ، ويقول ابن خلدون عن موسى : « ثم انتقض موسى بن أبى العافية عامل فاس والمغرب وخلع طاعة الشيعة وانحرف الى الاموية من وراء البحر وبث دعوتهم فى أقطار المغرب » وكان هذا انتصارا

واضحا لسياسة عبد الرحمن ، ولم يكن ابن أبى العافية وحده هو الذى سلك مع الفاطميين هذا المسلك فإن أدارسة الريف حذوا حذوه ، وولوا وجوههم شطر عبد الرحمن الناصر ليستعينوا به على منافسيهم ولا سيما مع بنى عمهم الفاطميين، وقد دعم هذا كله موقف الناصر فى المغرب .

وقد مات عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤) وخلفه القائم أبو القاسم محمد ، وقد لعبت السياسة الفاطمية دورا هاما فى عهد عبيد الله ، وحاول أن يحارب الدولة الاموية الاندلسية بسلاحها نفسه ، فاتصل بالثائر ابن حفصون قبل موته وحضه على الاستمرار فى الثورة ، وكان يتصل به من الحين الى الحين ، وحرضه على أن يمهد للدعوة الشيعية فى الاندلس ، وأرسل من قبله دعاة يجوبون نواحى الاندلس متنكرين فى زى تجار ؛ ويرى المؤرخ دوزى أن الرحالة ابن حوقل كان عينا من عيون الفاطميين وداعية من دعاتهم وقد استهل وصفه للأندلس بقوله : أن أشد ما يثير دهشة الزائر الغريب للاندلس هو كونها لا تزال خاضعة للحاكم المسيطر عليها ، وأن أهلها أذلاء خائرو العزم جبناء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم اذا هاجمتهم جيوش منظمة » وفكرة ظهور المهدى المنتظر كانت شائعة فى الاندلس مثل شيوعها فى سائر أنحاء المغرب والشرق ، ويرى دوزى أنه لو كان أتيح للفاطميين الوصول الى الاندلس لكانوا وجدوا فيها أتباعا لهم وشيعة تؤمن بمذهبهم ، ويرى دوزى انه من المحتمل أن يكون الفاطميون قد أرسلوا الفيلسوف ابن مسرة الى الاندلس ليمهد الاذهان لقبول الايديولوجية الشيعية ، وحقيقة أنه ليس هناك ما يقطع بذلك ولكنه من المؤكد أن الفاطميين حاولوا أن يوجدوا لهم حزبا يناصرهم ويدين بتعاليمهم فى الاندلس .

ويقول(١) الذهبى ان القـــائم الذى خلف المهدى كان كغيره من الخلفاء الفاطميين ينقم على السنيين ، حتى انه أمر بلعن الصحابة وأن ذلك آثار غضب المغاربة ، وبخاصة الخوارج الذى ثاروا فى المغرب على الفاطميين ، وكان أشد هذه الثورات خطرا وأكثرها بلاء تلك الثورة التى أشعل نيرانها أبو يزيد مخلد بن كيداد المعروف براكب الحمار وقد استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد الا فى عهد ابنه المنصور الذى خلفه سنة ٣٤١ هـ وقد أخفى المنصور موت أبيه حتى لايؤثر فى حماسة جيوشه التى كانت مشغولة بثـورة أبى يزيد وقد قصر كل همه وانفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التى شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية ، وكان أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيـــلة زناتة فى مدينة توزر أكبر مدن شط الجريد فى تونس ، وقــد ولد فى توزر ونشأ بهـا وأخذ يعلم الصبية واعتنق مذهب الخوارج الاباضية ثم ســـار الى تاهرت وأخذ يعلم الصبية حتى خروج أبى عبد الله الشيعى الى سجلماسة لاطلاق المهدى من سجنه ، وقوى أمر أبى يزيد وراجت دعوته فى أواخر عهـد المهدى وبخـاصة بين قبـائل الزاب والمغرب الاقصى ، وقويت شوكته فى عهد القائم الذى خلف المهدى ، وهزم قبيلة كتامة أنصار المهدى ، وانتشرت جيوشه فى كل أنحاء الدولة الفاطمية ، حتى استطاع أن يهدد مدينة المهدية نفسها مستقر الخليفة ، ولما ولى المنصور الذى خلف القائم فى سنة ٣٣٤هـ قويت جيوشه بانضمام قبيلة صنهاجة وغيرها من قبـــائل البربر اليه ، واستطاع أن يهزم أبى يزيد ويقبض عليه ، وسيق أبو يزيد الى المهدية حيث مات متأثرا بجراحه

---

(١) الجزء الثالث من كتاب تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن صفحة ٢٤٩ .

سنة ٣٣٦ هـ ، وقد شغلت ثورة أبى يزيد الفاطميين سنوات طويلة وأثرت فى موارد الدولة وانهكت قواها ، وكانت هناك علاقات بين أبى يزيد والخليفة الناصر وقد وصل ابنه أيوب الى قرطبة فى سنة ٣٣٥ هـ رسولا من والده فاستقبله الناصر فى قصر الرصـــافة وأكرم لقاءه ، وقد ظل أبو يزيد يراسل النـــاصر معترفا بامامته وممواليا له الى حين وفاته ، واغتنم عبد الرحمن الناصر فرصة اشتغال الفاطميين بمقاومة ثورة أبى يزيد ووطد مكانته فى نواحى المغرب الاوسط والاقصى ، وفى عهد الخليفة الفاطمى المعز دخل جوهر قائد جيوشه الى المغرب الاقصى واســـتولى على مدينة فاس ووصل الى مضيق سبتة ولم يستطع الاستيلاء عليها ، وهاجم حاكم صقلية من قبل الخليفة الفاطمى باسطوله مدينة المريه ، وحرق السفن الراسية بها واستولى على جانب منها ، وقد رد عبد الرحمن على ذلك باطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الاندلس وانفاذ كتبه بذلك الى العمال بســائر نواحى الاندلس . ثم أصدر أمره الى قائده غالب فى سنة ٣٤٥ هـ بمهاجمة سواحل افريقية ، ولكن هذه الحملة لم تنجح النجاح الذى كان يأمله عبد الرحمن فان الاندلسيين بعد أن صادفوا بعض النجاح فى أول الأمر اضطرتهم الجيوش المدافعة عن الشواطىء الى الجلاء ، وكان عبد الرحمن مشغولا حينذاك بمحاربة ملك ليون ، ولما كان يرغب فى توجيه جيوشه جميعها الى افريقية ؛ لذلك كان من الطبيعى مسالمة المسيحيين فى الشمال ولذلك لم يتشدد فى قبـول شروط الصلح التى عرضـــها ملك ليون ، ولما تم الصلـــح وجه اهتمامه كله الى افريقية وأعد حملة ضـخمة لمهاجمة الفاطميين ، ولكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بينه وبين مملكة ليون ، فوجد نفسه مضـطرا الى تحويل جيوشه اليها ، ومهـــما يكن من الامر فان قوة أسطول عبد الرحمن

الناصر مكنته من أن ينازع الفاطميين السيطرة فى البحر الأبيض المتوسط كما ان امتلاكه لسبتة مكنه من أن تكون مقاليد موريتانيا فى يده، وقد استطاع عبد الرحمن باستيلائه على سبتة وايجاد علاقات مع زعماء قبائل المغرب وحكامه وانشاء أسطول ضخم أن يجنب الاندلس خطر استيلاء الفاطميين عليها وانتزاعها من سيطرة الامويين ٠

صراع عبد الرحمن الناصر مع الدول المسيحية في شمال اسبانيا

فى الوقت الذى شرع فيه عبد الرحمن فى رم بناء الدولة ولم شعثها وما تناثر من مدنها وكورها • والقضاء على الثورات المضطرمة ، والخلافات المحتدمة ويجتذب اهتمامه ظهور خطر الدولة الفاطمية الناشئة تعرضت دولته لخطر آخر غير مأمون العواقب ولا سهل المدافعة من حدودها الشمالية ، فقد كانت مملكة ليون تزداد تماسكا وقوة حتى أصبحت مرهوبة السطوة وعرة الجانب ، ونشأة هذه الدولة لا تخلو من الغرابة والعظة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر كما يقول المثل المعروف ، ففي القرن الثامن الميلادى حينما اجتاحت الجيوش الاسلامية شبه الجزيرة الاسبانية لجأ قرابة ثلاثمائة من المجاهدين الاسبانيين الى غار كبير فى مقاطعة أوستريش واعتصموا به ، وكان لهم من قلة عددهم ووعورة الجبال التى نزلوها وهوان أمرهم ما أغرى الجيوش الاسلامية بالاستهانة بأمرهم واهمال شأنهم ، وكان هذا الغار ـ واسمه غار دونجا ـ متغلغلا فى شعب ضيق ملتو بين صفين من الصخور الصلدة ، ويجد الصاعد اليه صعوبة ومشقة فى الدخول اليه ، وكانت حفنة قليلة من المحاربين تستطيع فى

سهولة ويسر أن تدفع عن هذا الكهف الصعب المرتقى المنيع الناحية ، وكان زعيم هؤلاء اللاجئين يدعى بلاى ، ولم يستطع كثيرون ممن لاذوا معه بالغار ان يصبروا ويحتملوا الم الحرمان وقسوة الحياة فى ذلك المكان المنعزل الموحش فبعضهم آثر التسليم وبعضهم قضى نحبه جوعا ولم يبق فى الغار تحت زعامة بلاى سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء كان طعامهم الوحيد العسل الذى يختزنه النحل فى شقوق الصخور ، ورأى المسلمون أنه من العبث مطاردة هذه الطغمة القليلة من الفارين التى لا يخشى لها بأس فى هذه المسالك الوعرة التى تعرض سالكها للهلاك ، ويصف ابن حيان المؤرخ نشأة هذه الدولة بقوله (١) « وفى ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى قام بجليقية علج خبيث يدعى بلاى فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم ، حتى اسمابهم الى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الاندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى من أرضهم ، والحماية عن حريمهم ، وكانوا لا يطمعون فى ذلك ، وقيل انه لم يبق فى أرض جليقية قرية لم تفتح الا الصخرة التى لاذ بها هذا العلج ، ومات أصحابه جوعا الى ان بقى فى ثلاثين رجلا ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش الا من عسل النحل فى جباب معهم فى خروق الصخرة ، ومازالوا ممتنعين الى ان اعيا المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجا ما عسى ان يجىء منهم ، فبلغ أمرهم بعد ذلك فى القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به » ويقول مؤرخ آخر « كم تمنينا على الله لو أن المسلمين أطفئوا دفعة واحدة

---

(١) العرب فى اسبانيا لستانلى لين بول وترجمة الأستاذ على الجارم صفحة ١١١/١١٢

شرارة هـذه الجذوة التى قدر لها أن تلتهم دولة الاسلام بالأندلس » .

وهذا الاهمال لشأنه،والاستهانة بأمره مكنه من أن يوطد مركزه ، ويزداد عدد اتباعه حتى استطاع أن يهاجم المسلمين ويشن عليهم الغارات ، فعقد مونوسا حاكم اقليم استوريش العزم على مقاومة هـذه الغارات وعهد الى أحد رجاله ويدعى علقمة بمهاجمتهم ودفع غاراتهم ، ولكن الحملة كانت سيئة الحظ فقد قتل علقمة ورجاله جميعهم مما شجع أهل استوريش وزادهم اقداما على شن الغارات وموالاة الهجمات ، ولما لم يكن مع مونوسا مايكفى من الجند لاخماد الثورة ومقاومة الهجوم فقد اضطر الى ترك مدينة جيجون الواقعة على خليج بسكاى حيث كان مقره الى ليون ، وهكذا استطاع سكان اوستريش ان يستردوا أرضهم ، ويظفروا باستقلالهم ، وفى الناحية الشرقية من مقاطعتهم كانت مقاطعة كانتابريا التى لم تخضع لسيطرة المسلمين ، وعندما تزوج الفونسو حاكمها بابنة بلايو وارتقى عرش استوريش تضاعفت قوة المسيحيين واشتد بأسهم ، وصمموا على مدافعة غزاة بلادهم الى الجنوب ، وهيأت لهم ظروف الأحوال الفرصة المناسبة ، فقد كان معظم المسلمين فى النواحى الشمالية من البربر ، وحدث خلاف بينهم وبين العرب ، فثاروا بهم وأجلوهم من المناطق الشمالية ، ولكنهم حينما تقدموا الى الجنوب أصيبوا فى دورهم بهزيمة وقتل العرب منهم الكثيرين ، وحدثت مجاعة شديدة الوطأة بدأت سنة ٧٥٠ م (١٣٣ هـ) واستمرت خمس سنوات متتالية فصمم أكثر البربر على الهجرة من شبه الجزيرة والعودة الى قبائلهم فى افريقية ، واغتنم الجليقيون الفرصة وقاموا بثورة سنة ٧٥١ م (١٣٤ هـ) واعترفوا بألفونسو ملكا عليهم ،

واستطاعوا بقيادته ان يقضوا على عدد كبير من أعدائهم وان يرغموا الباقين على الانسحاب الى استرقة ، وفى سنة ٧٥٣ / ٧٥٤ (١٣٦ / ١٣٧ هـ) دفعوا بالبربر أكثر فاكثر الى الجنوب ، وأخلوا منهم برافرة والبرتغال وبازو ، وبذلك خلا لهم شاطىء نهر دويرة حتى مصبه فى المحيط الأطلسى ، وتابع المسلمون ارتدادهم الى الجنوب فاخلوا استورفة وليون سمورة وليدسمة وسلمنقة ، وتراجعوا الى قورية وماردة ، وفى الناحية الشرقية أخلوا شلطائية وشنت منكش وشقوبية وآبلة وأوقة وأكشمة وميراندا على نهر الابرو، وبذلك أصبحت المدن الرئيسية على الحدود الاسلامية من الغرب الى الشرق هى قلمرية على نهر منديبجو وطلبيرة وطليطلة على نهر التاجة وتطيلة وبنبلونة ، وهكذا مكنت الحرب الداخلية والمجاعة الأسبانيين من تحرير جزء كبير من بلادهم لم تكد سيطرة المسلمين عليه تتجاوز أكثر من أربعين سنة ، ولكن الفونسو لم يستفد كثيرا من هذا الفتح فقد جاب أنحاء تلك المناطق المهجورة وقتل من وجده بها من المسلمين ولكن لم يكن يملك من المال ما يكفى لاعادة بناء القلاع والحصون التى خربها المسلمون قبل أن يتركوها ولم يكن عنده كذلك عدد كاف من المزارعين يستطيعون ان يقوموا بالزراعة فى هذه المناطق الشاسعة ، ولذلك قفل الى مملكته ومعه رجاله ، ولم يكن فى وسعه سوى احتلال النواحى القريبة من حدود مملكته ، وظل باقى المناطق التى اكتسحها مهجوراً وحاجزاً طبيعيا بين المسيحيين فى الشمال والمسلمين فى الجنوب ، وقد استطاع خلفاء الفونسو أن يتموا ما عجز عنه ، وفى خلال حروبهم المستمرة مع العرب استطاعوا أن يعيدوا بناء المدن الهامة والحصون والقلاع ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى الذى اشتعلت فيه الثورات فى الجنوب وكاد الزمام أن

يفلت من أيدى أمراء قرطبة تمكن المسيحيون من مد حدودهم الى نهر دويرة ، وبنوا معاقل منيعة فى سمورة وشنت منكش وشـــنت اشتيين دى جورماز وأكشـــمة ، وكانت هذه المدن الأربع تكون سدا منيعا لمواجهة هجمات مسلمى الأندلس ، وكانت المنطقه الموحشة الجـدباء الشاســـعة الممتدة من نهر دويرة الى نهر الوادى الكبير لا يسيطر عليها العرب ولا مملكة ليون ، أما من الناحية الغربية فقد كانت حدود مملكة ليون التى تجاوزت نهر مونديجو قريبة من حدود أعدائهم العرب ، ولكن هذه الحدود كانت كثيرا ما تخترق ، ومكن اشتغال أمراء قرطبة باخماد الثورات الداخلية فى الأندلس أهل ليون من مد غاراتهم حتى نهر التاجة ونهر الوادى الكبير ، وكان معظم سكان هذه الناحية من قبائل البربر ، وكثرة الخلافات التى قامت بين هذه القبائل ومحاربتهم بعضهم لبعض لم تمكنهم من مقـــاومة اغارات الليونيين ، ولذلك أرغموا على دفع ضريبة للمسيحيين .

وفى سنة ٩٠١ م (٢٨٩ هـ) لاحت للمسلمين فرصة للانتقام ، فقد أعلن الأمير أحمد بن معاوية بن هشام الأموى بين البربر أنه المهدى المنتظر وكان من الطامعين فى عرش الأندلس والمقبلين على دراسة علوم الغيبيات ، ودعا البربر الى الانضمام تحت لوائه لمهاجمة سمورة ، وكانت هذه المدينة منذ تجديد بنائها فى سنة ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) قد اتخذها الفونسو الثالث قاعدة لشن الغارات على البربر بمعاونة المسيحيين فى طليطلة، وأوقع الرعب فى قلوب البربر ، لذلك وجـــد الأمير الأموى استجابة لدعوته من جانب البربر ، فقد كانوا على جانب من الجهل يجعلهم سريعى التصديق بالغيبيات ، وكانوا فى الوقت نفسه ظامئين الى الانتقـــام من المسيحيين الذين والوا عليهم الغـــارات وأقنعهم أحمد بن معاوية أن أسوار المدن ستتداعى

وتسقط عنـد اقترابهم منهـا ، وفى أشهرّ قلائل جمع هذا الدعى جيشـا بلغ عدده ستين ألفـا من المحاربين ، وقادهم الى ناحية نهر دويرة واشـتبك مع جيش الفونسو الثـالث فى معركة هـزم فيهـا الليـونيون وحال البربر بينهم وبين الدخـول الى سمورة ، وأرغموهم على الارتداد الى بلادهم ، ولكن سـيطرة أحمد بن معـاوية على البربر أثارت الحسد فى نفوس زعمائهم ، وخشوا أن يفقدوا نفوذهم ، ولم يحسن أحمد بن معاوية معاملتهم ، وأطغاه الانتصار ، فاستولى عليه الغرور وحب الاستعلاء ، وتسرب الى البربر الشـك فى رسالته ، فبدأ يفقد نفوذه وسيطرته عليهم ، ومكن ذلك زلول ابن يحيى أقوى زعمائهم من التغلب على هذا المهدى المزعوم ، فتخلى عنه أنصاره ، وأبى أن يموت مسربلا بالعار، فحث جواده فى حشود الليونيين ولقى الميتة التى كان ينشدها ، وسـمر رأسه على أبواب سمورة وزادت هذه المعركة الليونيين جرأة واقداما ، وشد من عزمهم معاونة أهل طليطلة لهم ووقوفهم فى صفهم ، وفى تلك الفترة كان على عرش نافار سانكو العظيم الذى استطاع أن يجعل لبلاده أهمية لم تكن لها من قبل ، وصار هذان الملكان ــ الفونسو الثالث ملك ليون وسانكو العظيم ملك نافار ــ يعتقدان أن أسبانيا المسلمة غنيمة لا يجمل بهما أن تفلت من أيديهما ، وكان لرجال الدين تأثير شديد على أهـل ليون ونافار ، جعلهم يعتقدون أن أبواب الجنة مفتوحة لهم اذا حاربوا الكفار ، وكان تخلفهم الحضارى يثير فى نفوسهم الحقد والحسد لما كان ينعم به مسلمو الاندلس من حضارة مزدهرة وعيشة راضية رافهة ولو كان أتيح لهؤلاء الهمج المتعصبين التغلب على حضارة الأندلس اللامعة لكان العـالم قد فقـد الكثير وتخلف ركب الحضـارة الانسانية ، ولذلك كان على عبد الرحمن أن يضطلع بعبء مرهق ثقيل ، وينهض بواجب

مشرف جليل ، وليس هذا الواجب الدفاع عن بلاده فحسب بل الدفاع عن الحضارة الانسانية ذاتهـــا ، والابقاء عليها ، وكانت المشـــكلات التى واجهته مشـــكلات شديدة معقدة مستعصية فكان عليه أن يخمد الثورات فى داخل بلاده وأن يرد هجوم مسيحيى الشـــمال الذين زادت جرأتهم وكثـــر عدوانهم ، وكان عبد الرحمن من أهل القوة البالغة والبـــأس الشديد ، فلم يتردد عند مباشرته السلطة وتســـلمه مقاليد الحكم فى التشمير لمواجهة هذه الأخطار ، وقد رأينا فى فصل سابق كيف تجرد للقضاء على الثورات الداخلية ، وتخضيد شوكة العصـــاة ، وسنرى كيف واجـــه تحـــدى مسيحيى الشمال .

ففى مســـتهل حكمه أرغم على الدخول فى معركة مع الليونيين لم يكن هو موقد نيرانها ، فقد بدأ أردونو الثانى ملك ليون الجرىء فى سنة ٩١٤ م (٣٠٢هـ) مهاجمة نواحى مدينة ماردة الواقعة على نهر الوادى الكبير ، واستولى على حصـــن الحنش (النجى) ووضع السيف فى المدافعين عنه وسبى النساء والأطفال ، واشتد هلع أهل بطليوس لمقدمه لقربها من ماردة ، فأسرعوا بجمع المال والسلع الثمينة ، وقدموها فى ذلة وضراعة ليتقوا شره وعلى رأسهم أميرهم الذى كان لا يزال خارجا على سلطة عبد الرحمن الناصر ، وتقبل أردونو الهدية ، وعاد حاملا الغنائم ، وعبر نهر التاجه ثم نهر دويرة ، وكان عبد الرحمن يستطيع الاغضاء عن هذا الاعتداء ؛ لأن صاحب بطليوس كان خارجا على طاعته ، ولكن ذلك لم يكن يتفق مع سياسة عبد الرحمن ، فقد أراد أن يكسب ود هؤلاء الثائرين من رعيته ويريهم أنه قادر على حمايتهم ، ودفع الأذى عنهم ، ولذلك جرد حملة بقيادة القائد المحنك أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) وضم اليه عددا من الموالى

والأجناد فجال جولته فى نواحى مملكة ليون ، وغنم وسبى وعاد برجاله سالمين غانمين ، ولكن هذه الحملة لم تكن كافيه لردع أردونو ملك ليون ، فقد شكا سكان الحدود الى عبد الرحمن اعتداء الليونيين على طلبيرة الواقعة على نهر التاجه وأحوازها ، فأرسل فى السنة التالية ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) جيشـــا يقوده أحمـــد بن محمد بن أبى عبـــدة ، وأخرج معه طبقات من المجاهدين ، وحشد اليه رجال الثغر ؛ فدخل فى حـــدود مملكة ليون ، ونازل حصن فاشتر مورش ، وجد فى محاربة المدافعين عنه ، فجمع المليونيون جمـــوعهم ، وأجلبوا عليــه بخيلهم ورجلهم ، وكان بعض أهـــل الثغر الذين انضموا الى الجيش ممن يشك فى ولائهم ، فحينما أقبل اوردونو الثانى لنجدة المدافعين عن الحصن تداعوا الى اظهار الهزيمة ، وأحدثوا بذلك اضطرابا وفوضى فى صفوف الجيش ، ولما رأى القــائد المغوار ابن أبى عبدة طلائع الهزيمة ، ثبـــت بنفسه وأظهر الصبر وأبى التراجع والفرار وآثر الاستشهاد وأن يموت بين الضرب والطعن ميتة « تقوم مقام النصر ان فاته النصر » كما قال أبو تمام ، وانحاز الى جانبه بعض جنوده الذين أبوا أن يحتملوا خزى الفرار،وشاركوه مصيره ، ويقول ابن عذارى(١) « وانعقد سائر الجيش وصاروا يدا واحدة وخرجوا الى أرض المسلمين بدوابهم وأنقــالهم وأبنيتهم » ولــكن المؤرخ دوزى يقول (٢) ان كاتبى الحوليات المسيحيين قد ذكروا أن القضاء على جيش المسلمين كان تاما حتى ملأت جثث جنودهم التلال والغابات والسهول من نهر دويرة الى مدينة أنتيسة .

---

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٢٥٦ .

(٢) من كتاب « اسبانيا الاسلامية Islam للمؤرخ دوزى صفحة ٤١٧ .

ولم تنل هذه الهزيمة من عزيمة عبد الرحمن ، فشرع فى التأهب لازالة آثارها ، ولكن بينما كان يعد العدة لارسال حملة أخرى فى السنة التالية اضطر الى تحويل اهتمامه الى افريقية لتزايد الخطر الفاطمى بها ، ولم ينس عبد الرحمن مع ذلك ما حل بقائده ابن أبى عبدة الذى بعث زهو اردونو الثانى بانتصاره عليه على أن يعلق رأسه على أســوار مدينة شنت اشتيبن والى جانبه خنزير برى ، ولو أنه نسى ذلك لذكره بواجبه ما أقدم عليه مسيحيو الشمال بعد ذلك ، ففى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) هاجم اردونو الثانى وحليفه سانكو ملك نافار أحواز مدينة ناجرة ومدينة تطيلة وعاثا بها نهبا وتخريبا واستولى حليفه ســانكو بعد ذلك على حصن تلبيرة وأحرق المسجد الكبير الجامع المقام فى هذا الحصن ، وقد أحفظت أخبار هذه الأحداث الناصر ، فأمر بالاحتفال فى الحشــد وجمع الرجال والتكثير من الأجنــاد والفرسان والأبطال ، وعهد الى حاجبه بدر بن أحمد بقيــادة الجيش ، ونفذت كتبه الى أهل الأطراف والثغور بالخروج اليه والدخول فى معسكره والجـد فى نكاية المعتدين على الأراضى الاسلامية ، وخرج الجيش من قرطبة ، واقتحم حدود مملكة ليون ، وهاجم جيشها المعتصم بالجبال ، ودارت معركتان فى ناحية مطونية ، انتصر المسلمون فى كلتيهما ، وهكذا اســتطاع عبد الرحمن أن يثأر لهزيمة جيشه السابقة ويشــعر الليونيين بقــوته ويوقع فى قلوبهم الرعب ، ولم يكتف عبد الرحمن بهذا الانتصار ، وأراد أن يمعن فى اذلالهم ، واظهار سطوته ، فقاد الجيش بنفسه فى ســنة ٩٢٠ م (٣٠٨هـ) واستولى على مدينة وخشمة ، وترك المدينة بعــد أن حرق حصنها ، وتقــدم الى شنت اشتيبن دى جورمز ، فوجد اهلها قد هجروا الحصــن وأخلوه فامر عبد الرحمن بهدم الحصن ، وتقدم منها الى قلعة القبيلة وتركها

انقاضا ، واتجه الى مدينة قلونية وهى من المدن القديمة ،وكان سكانها قد اخلوها ، فهدم بيوتها وكنائسـها ، ويبدو ان الليونيين قد أخلوا له الميدان ، وأفسحوا له الطريق ، لأنهم لم يجدوا فائدة فى المقاومة •

واستجاب عبد الرحمن لتوسلات مسلمى تطيلة فوجـه جيوشـه الى نافار متئدا فى تقدمه حتى لا يرهق جيشـه ، وطوى المسافة من قلونية الى تطيلة فى خمسة أيام ، ووضع كتيبة من الفرسان تحت قيادة محمد بن لب حاكم تطيـلة وأمره بمهاجمة حصـن قلهزة الذى بناه سـانكو لارهاب المسـلمين فى تطيلة ، فوجدوا هذا الحصن قد أخلى ، وكان سانكو قد فر هاربا مسرعا الى أرنيط من حصن قلهزة بعـد أن أخلاه وكان قد اتخذه معقلا وثواه مسكنا فلما فجأته جنود عبد الرحمن اخلاه وزال عنه فغنمه المسلمون بأسره وخربوه وانتسفوا كل ما حواليه ، وحينما عبر جيش المسلمين نهر ابرو هاجم سانكو طليعة الجيش ، ولكنه هزم هزيمة ساحقة ، وتوارى هو ورجاله فى الجبال ، ولاذوا بالشعاب •

ولما وجد سانكو نفسه عاجزا عن الوقوف وحـده فى مواجهة جيش عبد الرحمن وتكررت هزائمه سـأل أردونو مناصرته ، وطمع الملكان فى اعتراض مقدمة الجيش أو انتهاز الفرصة فى الساقة حسبما تسمح ظروف المعركة ، وفى الوقت نفسه فان المسيحيين الذين اعتصموا بالجبال المنيعة تعرضوا لصـفوف الجيش وهى تخترق شـعب الجبال والأودية ، وجعلوا يتصـايحون ويولولون ليضـعفوا من قلوب جنـد عبد الرحمن ، وأنزلوا بعض الخسـائر بالجيش ، ووجد عبد الرحمن أن جيشه فى موضع غير ملائم ومعرضا للخطر ، وكان عليه أن يقاوم رجالا خفاف الحركة فيهم صلابة الجبليين

وشدة صبرهم على المقاومة ، وكانت هزيمتهم لجيش شارلمان وهو يعبر ممرات رونسسفال فى جبال البرانس لا تزال ماثلة فى ذاكرتهم ، وطمعوا فى أن تلوح لهم فرصة لينزلوا بجيش عبد الرحمن كارثة مثل الكارثة التى أنزلوها بجيش شارلمان ، وأدرك عبد الرحمن الخطر الذى يتهدد جيشه ، فلما بلغ وادى القصب (وادى جانكيراس) توقف الجيش ، وأقام الخيام ، وتورط اللائذون بالجبال فى خطأ فادح ، فبدلا من أن يظلوا معتصمين بالجبل هبطوا الى السهل ، وأقدموا على الاشتباك فى معركة مع جيش عبد الرحمن ، وأصيبوا بهزيمة مروعة ، وفروا مولين ، وجند عبد الرحمن فى آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى غربت الشمس وحال الظلام دون تتبعهم ، وأسر الكثير من قادتهم ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من مقاتلة الأسبانيين الى حصن مويش ، ورجوا التمنع به ، فأمر عبد الرحمن بمحاصرة الحصن من جميع جهاته وحاربهم فى داخله حتى تغلب عليهم واستخرجهم جميعهم ، وقدموا اليه ، وأمر فضربت رقابهم جميعهم بين يديه ، وأصيب فى الحصن والمحلة التى كانت بقربه من الأمتعة الحلية المتقنة والآنية مالا يحصى كثرة .

واكتسح الجيش الظافر نواحي نافار هادما لما صادفه من قلاع وحصون دون أن يلقى أى لون من ألوان المقاومة ، وغنم غنائم كثيرة ، وانتقل الناصر الى حصن كان اتخذه سانكو على أهل بقيره ، فألقاه خاليا قد فر عنه أهله فأمر بهدمه ، واجتمع عند رجال الجيش من الحصون التى استولوا عليها الكثير من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله ، ولم يجدوا له ثمنا يباع به ، وأصدر عبد الرحمن أمره برجوع الجيش ، فلما انتهى الى مدينة أنتيسة ودع الجنود الموكلين

بالحدود وكساهم ووصلهم ، وأذن لهم فى الرجوع الى مواضعهم ، ودخل قرطبة بعد غيبة استغرقت ثلاثة أشهر .

ودار فى خاطر عبد الرحمن بعد هذه الغزوة أن مسيحيى الشمال قد وهن عزمهم ، وضعفت قواهم ، وأن الفجائع التى منوا بها قد تكبح نزواتهم الجامحة ، وتحد من ميلهم الى العدوان على ثغور الأندلس الاسلامية ، ولكن القدر أراد لعبد الرحمن أن يحارب قوما شديدى التوثب ، لا تفل عزيمتهم الهزائم المتوالية ، بل تزيدهم عناداً واصراراً ، وكان عليه على الدوام أن يأخذ حذره ، ويحكم حراسته ، ولا يغفل عن المراقبة ، ومواصلة الأهبة واستعداد للحرب والنزال ، وفى سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) قام أردونو بغارة أخرى وتقول الرواية النصرانية — وربما كانت لا تخلو من المبالغة — أن ملك ليون تغلغل فى أراضى الأندلس الاسلامية حتى كان على مسيرة يوم من قرطبة ،وبعد سنتين استولى أردونو على تاجرة واستولى حليفه سانكو ملك نافار على حصن بقيرة ، وكان لسقوط هذا الحصن وقع أليم فى نفوس مسلمى أسبانيا فقد أذيع أن جميع المدافعين قتلوا ، وكان من بينهم أفراد من الأسر الاسلامية العريقة البارزة ، ولو كان عبد الرحمن تقاعد عن الانتقام لأرغمه على ذلك الرأى العام ، ولكن عبد الرحمن لم يكن فى حاجة الى من يحفزه للقيام بواجبه فى الدفاع عن رعيته ومعاقبة من يعتدى على اتباعه ، ولم ينتظر الوقت الذى كانت فى العادة المتبعة تبدأ فيه الصوائف ، وفصل من قرطبة فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) وكما يقول ابن عذارى (١) « بأنفذ عزم وأوكد حزم وأقوى نية فى الانتقام لله عز وجل ولدينه من الأرجاس الكفرة الأنجاس » ، ولما اجتاز حدود نافار كان

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٢٧٨ .

اسمه قد أثار الرعب فى قلوب النافاريين فأخلوا القــلاع وفروا هاربين ، ومر بقلقرة وكان سانكو قد أخلاها فأمر بهدم حصنها وإحراق جميع ما فيه ، وانتقل منه الى موضع يعــرف ببيطرة ألتة وكانت حوله حصون مانعة قد أخلاها حراسها ، وخلفوا امتعتهم واطعمتهم اذ عوجلوا عن نقلها معهم ، ولجأ فريق منهم الى ثلاثة غيران فى شفير جرف على النهر ، فتسور عليهم جنود عبد الرحمن ، وقتلوهم وســبوا الذرارى وغنموا الأمتعة ، وهدمت الحصون التى كانت فى تلك الجهة ، ولم تبق منها صخرة قائمة ، وانتقل عبد الرحمن من هذه المحلة الى حصن فالجش ، وكان من الحصـــون المنيعة ، فانتهب المســلمون جميع ما به ، واتحــل عبد الحمن منه الى حصــن قرقســتال على وادى أرغــون ، وكان رجال الجيش ينهبــون ويحرقون كل ما يجدونه فى طريقهم ، وعزم عبد الرحمن على التوغل فى نافار قاصداً بنبلونة ، وحاول سانكو عبثا أن يوقف تقدمه ، ولكنه كان فى كل مرة يرتد خائبــا وينكص على عقبيه ، ووصل عبد الرحمن الى العاصمة دون أن يعتاقه عائق، ووجد المدينة قد خلت من سكانها فخرب الكثير من منازلها ، وهدم كنيسة كان قد بناها سانكو وانفق على بنائها ، وكان قد هدم قبلها الكنيسة الكاتدرائية ، وحاول سانكو أن ينقذ الكنيســـة القائمة على التل المجاور للمدينة ، ولكنه عجز عن ذلك ، وجاءه مدد من قشتالة فحاول مرتين مهاجمــة الجيش الاسلامى فى تقدمه ولكنه باء بالفشل ، وشعر بقصر حيلته وذله ومهانته ، ويذكرنى موقفه من عبد الرحمن بقول المتنبى لسيف الدولة الحمدانى : ــ

ومن لم تعلمــه لك الذل نفســه

من النـــاس طرا علمته المناصــل

وظل سانكو طويلا عاجزا عن القيـــام بأى عمل خائرا مستضعفا ٠

ولم يكن هناك ما يخشاه عبد الرحمن من ناحية ليون ، فقد كان أردونو الثانى الشـجاع قد مضى به الموت قبل غزو بمبلونة ، وأخوه فرويلا الذى خلفه لم يحكم سوى سنة واحدة وكان كل ما أسهم به فى الحرب هو ارسال بعض الامدادات لملك نافار ، وحينما مات حدث صراع على العرش بين سانكو والفونسو ابنى أردونو الثانى ، وســاعد سانكو ملك نافار الفونسو ـ الذى أصبح الفونسو الرابع ـ وكان قد تزوج ابنة سانكو النافارى فنجح فى ارتقاء عرش ليون ، ولكن هــذا النجــاح لم يثن عزيمة ســانكو ، فجمع جيشا وتـوج فى شنت ياقب دى كومبوستلا ، وبعد أن استولى على ليونانتزع العرش من أخيه ، ولـكن بعــد سنتين ـ فى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨م) ـ استولى الفونسو على ليون بمساعدة النافاريين ٠ ولكن سانكو تمكن من استرداد جليقية ، ولم يعبأ عبد الرحمن بالحرب الداخلية التى نشبت بين المســيحيين فى الشمال ، وآغتنم الفرصة لاخماد الثورات فى داخل بلاده ، واستأثرت باهتمامه مشكلات افريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، واستراح من مجاهدة آلدولتين المسيحيتين فى الشــمال حينا من الزمن ، وقد انتهت الحرب الداخلية الأولى فى ليون سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩) بوفاة ســانكو ، وقامت حرب أخرى ســنة ٣١٩ هـ (٩٣١م) ففى تلك الســنة ماتت زوجة الفـونسو الرابع ، فاشتد حزنه عليها ، واعتزل الملك ، وأخلى العرش لأخيه راميرو ـ وهو ثانى من تســموا بهذا الاسم من ملوك ليون ـ وأوى الى الدير فى سهجون ولكنه لم يلبث أن ملحياة الدير الرتيبة ، وهجر صومعته ، وأعلن نفسه ملكا فى شنت

منكش ، ولم يرض هذا المسلك القساوسة وسائر رجال الدين المسيحى ، وأنذروه بانه سيصلى النار الحامية ان لم يعد الى الدير ، فخضع واستجاب لهم ، ولكنه كان كثير التردد لا يستقر على حال ، فسرعان ما خالجه الندم ، وخلع مسوح الراهب ، واغتنم فرصة غياب راميرو الثانى - وكان قد ذهب الى نواحى طليطلة التى كانت تحاصرها جيوش عبد الرحمن ليساعد أهلها فى رفع الحصار عن مدينتهم - وبادر بالاستيلاء على ليون ، ولما علم بذلك راميرو الثانى أسرع بالعودة ، وقام فى دوره بحصار ليون ، واستولى عليها ولكى يمنع أخاه من العودة الى المطالبة بالعرش سمل عينيه ، وفعل مثل ذلك بأولاد عمه فرويلا الثلاثة ، وسرعان ما شعر عبد الرحمن بالتغيير الذى حدث فى مملكة ليون ، فقد انقضى الزمن الذى هدأ فيه باله من ناحية تلك المملكة ، فقد كان راميرو الثانى الذى ولى الحكم فى ليون محرابا شجاعا ، ويضمر كراهة صماء وعداء شديداً للمسلمين ، وكان أول ما وجه اليه اهتمامه مساعدة طليطلة تلك المدينة المتمردة على سلطة الأندلس الاسلامية والتى طالما تحدت جيوش الأمراء وتأبت على الطاعة والخضوع ، ولذلك خف الى نجدتها والمساعدة فى رفع الحصار عنها ، وفى طريقه اليها استولى على مدينة مدريد ، ولكنه لم ينجح فى انقاذ طليطلة ، فقد تقدم قسم من الجيش المحاصر لملاقاته وأرغمه على الارتداد ، وترك المدينة لمصيرها ، وخارت عزيمة سكان المدينة واستولى عليهم اليأس فنزلوا على أمر عبد الرحمن وفتحوا أبواب المدينة كما سبق أن ذكرت وفى السنة التالية ٣٢٢هـ (٩٣٣م) حالفه الحظ ، فقد علم من فرنان جوانزاليس قومس قشتالة أن المسلمين يهددون وخشمة ، فتقدم لمحاربتهم وهزمهم ، وانتقم منه عبد الرحمن فى السنة التالية (٣٢٣هـ - ٩٣٤م) وكان

يريد أن يجعل سهول وخشمة التى وقعت فيها هزيمة الجيش الاسلامى تشهد انتصار هذا الجيش وتكون مسرحا له ولذلك حاول عبد الرحمن عبثـا أن يستدرج راميرو الثانى ويغريه بالنزول من معقله ، ولكن ملك ليون وجد أن الحزم يقتضيه أن يرفض الاشتباك فى معركة ، فترك عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخشمة ، وتابع تقدمه الى الشـمال واستولى على مدينة برعش عاصمة قشتالة وأعمل فيهـا الهدم والتدمير ، وهدم ودمر حصونا أخرى كثيرة ، ولكن طرأ على الموقف بعد ذلك تحول ينذر بالخطر ، فقد كانت تقيم فى أرغون منـذ الفتح الاسـلامى أسرة بنى هاشم ، وقـد ادت هـذه الأسرة خدمات جليـلة للأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن الأوسط حينما كان بنو قسى أصحاب السيطرة فى ناحية أغون ، وقد استمر حكم هذا الاقليم وراثيا فى أسرة بنى هاشم أكثر من أربعين سـنة ، وكانت الأسرة الوحيـدة التى ظلت محتفظه بمكانتها فى عهد عبد الرحمن الناصر فى منطقة الثغر الأعلى ، ولكن محمد بن هاشم لم يكن منطويا على الولاء للناصر، وربما كان سبب ذلك نقمته على الناصر لقضائه على نفـوذ زعماء العرب ، أو ربما كان الباعث له الطمـوح والرغبة فى الطمع فى العرش لنفسه ولأبنائه من بعده ، ولذلك عمل على التقرب من راميرو ملك ليون ، ووعده بالاعتراف بسيادته فى مقـابل مساعدته له ضـد الخليفة الناصر ، وأعار راميرو تقربه منه أذنا صاغية ، وفى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤م) كشف القناع عن نياته برفضه الانضمام الى الجيش الاسلامى ، وبعد ذلك بثلاث سنوات اعترف بسيادة راميرو ، ورفض بعض قواده متابعته فى طريق الخيانة ، وقطعوا علاقتهم به ، فقاد راميرو جيشه الى المقـاطعة ، وهدم الحصون التى كان أصـحابها يدينون بالولاء للخليفة ، وأسلمهم الى محمد ، وعقـد راميرو ومحمد

محالفة مع مملكة نافار ، وكان ملكها حينذاك الشاب جارسيا الذى كان يحكمها فى ظـل وصاية والدته الملكة طوطة أرملة ملك نافار الســـابق سانكو الكبير ، وبذلك كانت أسبانيا الشمالية جميعها متحالفة ضد عبد الرحمن ، فالخطر الذى قد كان سبق الى وهمه أنه قد تبدد وخفت وطأته، عاد قويا يحسب له حساب ويستوجب اليقظة لمقاومته ، وتلقـاه عبد الرحمن برحابة صدره المعهـودة وثباته الذى لم يخذله ، ففى سـنة ٣٢٧هـ (٩٣٨م) خرج عبد الرحمن الناصر من قرطبة على رأس جيشه ، واتجه الى ناحية قلعـة أيوب وكانت تحت سيطرة مطرف أحد أقارب ابن هاشم وكان يعاون المدافعين عن القلعة عدد من المسيحيين أرسلهم راميرو من البة ، وقد سقط مطرف قتيلا فى أول مناوشة وقعت بين الجيش المغير والمدافعين عن القلعة ، وخلفه فى القيادة أخوه الحكم ، ولكن بعد أن طورد الحـــاكم من المدينة الى القلعة سـعى فى طلب الصلح وسأل عبد الرحمن النـاصر الأمان له ولجيشه من المسلمين ، وقبل الناصر التســـليم وأمر بقتل مقاتلى البة الذين لم تشـــملهم شروط المصالحة .

وأتبع عبد الرحمن هذا الانتصار الأول بالاسـتيلاء على ثلاثين حصنا ، وحول جيشه على التوالى الى نافار وسرقسطة، وعهد فى الاشراف على حصار سرقسطة الى أحد أمراء البيت الأموى ، وهو أحمـد بن اســـحق ، قائد الفرسان ، وكان عبد الرحمن قد أقامه أخيرا حاكما على منطقة الثغر الأعلى ، ولكن هذا القائد سرعان ما أثار غضـب عبد الرحمن وأفقده ثقته فيه ، وقد عاش بنو اسحق فى أشبيلية فى فقر وخمول ذكر ولم يخل ســلوكهم من الشـــوائب ، وبرغم ذلك فان عبد الرحمن لم ينس لهم قرابتهم البعيدة بأسرته ولم يترفع

عن شـــمولهم برعايتـــه والاغداق عليهم ، ولكنهم لم يكونوا قانعين بحالتهم ، وكان طموحهم لا يقف عند حد ، وكان أحمد رأس أسرته فى ذلك الوقت فطمع فى أن يجعله عبد الرحمن وليا لعهده ووارثا لعرشه ، ومـع أنه أظهر تراخيا وتقصيرا شديدا فى الاشراف على حصار سرقسطة ، ضايق عبد الرحمن وأحنقه فانه أرسل فى الوقت نفسه الى عبد الرحمن يعرض عليه طلب ولاية العهـد ووراثة العرش ، ورأى عبد الرحمن فى هذه الرسالة نوعا من الاجتراء الوقح أحفظه وبعثه على أن يرد عليه برسالة شديدة اللهجة عيره فيها بماضى أبيه وماضيه وذكر له أياديه عليه ، وأخذه بيده وتنكره له ، وتطاوله عليه بالمطلب الذى عرضه ، وذكر له أنه باكرامه له ومحاولة رفع مستواه وضع الصنيعة فى غير مكانها • وأسبغ الرعاية على من لا يستحقها ، وختم الرســالة بلعن من أشــار عليه بتقديمه واصطناعه والاحسان اليه •

وبعد أن عزل أحمد بن اسحق مذموما مدحورا بدأ يأتمر بعبد الرحمن ، واشـــترك معه أخوه أمين فى نســج خيوط المؤامرة ، وكشف الخليفة تآمرهما ، وأمر بنفيهما ، فاستولى أمية على شنترين ورفع علم الثورة، وآتصل بملك ليون وزودة بنصائح ثمينة ومعلومات قيمة ، ودله على بعض نواحي الضعف فى أجزاء الامبراطورية الاسلامية ، وفى ذات يوم بينما كان فى خارج المدينة قام أهلها برد السلطة فيها الى الخليفة ، فلاذ أمية بحمى راميرو ، وظل أخوه أحمد مقبلا على نسج خيوط التآمر بهمة لا يعتريها فتـــور ، ووضع خطة لضم أسبانيا للفاطميين الذين كان يراسلهم ، ووقف الناصر على هذه الخطة وأمر بالقبض عليه وحكم عليه بوصفه شيعيا وأعدم •

وآنتصر عبد الرحمن فى الشمال ، وسلم للناصر محمد

ابن هاشم بعد أن حوصر فى سرقسطة ، ولما كان محمد هذا معروف المكانة فى المنطقة التى حكم بها ويمكن الاعتماد عليه فقد رأى عبد الرحمن من الكياسة وحسن السياسة أن يعفو عنه ويقره فى وظيفته ، وبعد أن لقيت الملكة طوطة الهزائم المتوالية عملت على أسترضاء عبد الرحمن والليأذ بعطفه وتسامحه واعترفت بسيادته على نافار ، وأصبح عبد الرحمن صاحب السلطة فى أسبانيا جميعها باستثناء مملكة ليون وجزء من قطلونيا .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يقضى على التحالف الخطر، ووجه اهتمامه الى تحطيم قوة خصمه الشديد الشكيمة الكثير العناد راميرو الثانى ملك ليون ، وكان هو فى الواقع محور النضال الحقيقى ، ففى صيف سنة ٩٣٩م (٣٢٧ هـ) تأهب عبد الرحمن للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون وحشد جيشا ضخما بلغ تعداد رجاله زهاء مائة ألف وعهد بقيادته الى نجدة الصقلبى ، وكان عبد الرحمن قد قرب الكثيرين من الصقالبة وبوأهم مراكز سامية ومناصب كبيرة فى القصر وفى الجيش مما أثار حنق زعماء العرب ، وتقدم عبد الرحمن بجيشه دون أن يحسب حسابا للعوامل الخفية التى كانت تعمل على صدع وحدة هذا الجيش الضخم، وتفت فى عضده ، وتأهب راميرو الثانى بكل ما وسعه من قوة للقاء عبد الرحمن ، وكانت الملكة طوطة قد نكثت العهد ، وتجاهلت مصالحتها لعبد الرحمن ، وحالفت ملك ليون ، وعاد التحالف بين نافار وليون الذى ظن عبد الرحمن أنه قد قضى عليه وتخلص من شره ، واقتحم عبد الرحمن بجيشه حدود مملكة ليون وزحف على مدينة سمورة ، ويتحدث المسعودى عن هذه

الغزوة قائلا «(١) غزا عبد الرحمن صاحب الأندلس فى هذا الوقت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فى أزيد من مائة ألف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهى مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين، ثم ان أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم – ممن أدرك الاحصاء وممن عرف – أربعين ألفا وقيل خمسين ألفا ، وكانت للجلالقة والوشكند على المسلمين» .

وقيل (٢) ان الذى منع راميرو من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق ، وخوفه الكمين . ورغبه فيما كان فى عسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ، ثم ان أمية استأمن بعد ذلك الى عبد الرحمن وتخلص من راميرو ، وقبله عبد الرحمن أحسن قبول » .

ويرى المؤرخ دوزى أن اختيار نجده قائدا عاما لهذه الحملة جعل غضب القواد العرب يبلغ أقصى شدته وتعاهدوا فى غضبهم على أن يجعلوا الخليفة يكفر عن هذه المعاملة التى تنم على احتقاره للأشراف القدامى بهزيمة شنعاء تلحق جيشه .

ويروى دوزى أن الجيش قصد شنت منقش ، وتصدى له جيش راميرو الثانى وجيش حليفته الملكة طوطة ، ونشبت بين الفريقين معركة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩م فأبدى رؤساء العشائر العربية فتوراً فى القتال وتراجعوا أمام النصارى ولكنهم لم يتوقعوا نتائج ما حدث ، فقد طاردهم الليونيون ،

---

(١) الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى صفحة ١٦٢ .

(٢) الجزء الأول من نفح الطيب للمقرى صفحة ٣٣٢ .

وحينما وصل المسلمون الى بلدة الخنـــدق الواقعة فى جنوب شلمنقة لم المســلمون شـــعثهم واستجمعوا قواهم وواجهوا العدو ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة ، ونجا الخليفةبصعوبة من سيوف المسيحيين ، وبعد الخندق تحول الارتداد والتقهقر الى فساد وخلل واضطراب وأمعن النصارى فى الجيش الاسلامى قتلا وأسرا ، وقتل نجدة الصقلبى قائد الجيش ، وأسر محمد ابن هشام حاكم سرقسطة ، وكان يحارب الى جنب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفدا الى ليون . وأثخن عبدالرحمن نفسه جراحا ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان ، ولم يحاول راميرو أن يكمل استغلال نصره بمطـاردة المسلمين ، أخذا بتحـذير أمية بن سـحق من ناحية وطعما فيما خلفه الجيش المنهزم من الأسلاب والغنـــائم الضـــخمة من ناحية أخرى ، ولولا ذلك لفنى الجيش الاسلامى جميعه ، وقد كانت هــذه الهـــزيمة أشد صدمة لقيها عبد الرحمن الناصر طوال حياته ، وخاب أمله فيها خيبة لم يعهدها من قبل ، وقد سمى هذه الغزوة حينما كان يستعد للقيام بها «غزاة القدرة» لأنه عول على أن يجعلها قاضية على راميرو الثانى ملك ليون ، وفى رواية أن من أسباب الهزيمة أن معظم جيش المسلمين كان من المتطوعة والقـــوات غـير النظامية ، وحدوث خلاف بين قادة الجيش من الأندلسيين والصقالبة ، وكانت هذه الغزوة آخـر غزوة غزاها عبدالرحمن بنفسه، ويرى المؤرخ ليفى بروفنسال أن تعليل دوزى لأسباب هزيمة عبد الرحمن فى هذه الغزوة بأن مردها الى تأثير الصقالبة فى بلاطه لا يخــلو من الحقيقة ولكنه لا يفسر أســـباب هذه الهزيمة تفسيرا كاملا ، وأكثر اللوم فى رأيه يرجع الى عبد الرحمن نفســه ، فقد بالغ فى تقــدير قوته ، وانكار قوة خصمه ، وخال هذه الحملة التى سماها «غزاة القدرة» أنها ستكون حاسمة ، وأنه سيلقن بها

مسـيحيى الشـمال درسا لا ينسونه بعدها ، ويرهب سائر جيرانه من المسيحيين الاسبانيين ، وكان قد تزوج أخت نجدة الذى عهد اليه بقيادة الجيش واسمهـا «أم قريش» وكان قد شاهدها تغتسل عند جدول من الجداول فأحبها وفتنه جمالها ، ويقول بروفنسال ان جيش عبد الرحمن فى هذه الغزوة برغم ضخامته وكثرة عدده لم يكن حسن التنظيم ، وان الظروف كانت شديدة قاسية على جيش عبد الرحمن لشدة ثبات جيش العدو وضراوته ، ويقول ان راميرو لحظ عند أسوار شنت منقش أن الجند النظاميين الذين يكونون الجزء الرئيسى فى جيش عبد الرحمن كانوا لا يحـاربون الا بحماسـة نسبية ، فهاجمه واضطره الى التقهقر ، وقاده بذلك نحو خندق كان قد حفره للدفاع على مسافة من المدينة ليشـتمل على الأعداء اذا لاذوا بأذيال الفـرار ونجحت حيلته ، فقد عاق هـذا الخندق تراجع الفرسان ، فقتل منهم الألوف ، وذعر عبد الرحمن من هذه العقبة غير المنتظرة ، ولاذ بالفـــرار تاركا فى المعسـكر مصحفا لا تقدر قيمته كان يصحبه دائما فى غزواته ، ودرعا من الذهب ، وقد أعيد اليه بعد ذلك وكانت هـذه المعركة صدمة شديدة لكبرياء عبد الرحمن وثقته بنفسه .

ويقول ليفى بروفنسال ان الخليفة فى ذلك اليوم كان بعيدا عن تسويغ حمله بحق لقب «الناصر» وقد عاد الى قرطبة بعد أن تناثر جيشه وتقدمته طليعة لتعلن أنه سليم معافى ، وتنقل أمره برفع برقع القوائم على شاطىء نهر الوادى الكبير، وعند وصوله أمر باعدام ثلاثمائة من رجال جيشه متهما اياهم بالجبن والتخاذل ، وأمر مناديا بأن ينادى قائلا : « هذا جزاء الذين خانوا الاسـلام ، وغشوا أهـله وبذروا بذور الفرقة والشغب فى صفوف المحاربين فى المعركة المقدسة .

وسجن راميرو الثاني محمد بن هاشم حاكم سرقسطة، ولم يسس له أنه انضم الى جيش عبد الرحمن حينما تقدم فى الثغر الاعلى لأخذ عاصمته ، ونقله فى المطبق الى ليون ، وقد ظل فى السجن سنتين قبل أن يحصل على حريته ، واقسم عبد الرحمن بأنه لا بد له من أن ينتقم لهزيمته ولـــكن على شريطة ألا يعرض نفسه لأخطار الحرب ، ومنذ هذه الهزيمه كان يعهــد بقيـــادة الجيش لأحد قوآده ، وقد كان لانتصار راميرو فى هـــذه المعركة وقـــع عظيم فى أوروبا وفى العالم الاسلامى أكسبه شهرة بعيدة المدى جاوزت حدود أسبانيا ، ولحسن حظ عبد الرحمن لم تمــكن ظروف الحرب الداخلية التى حدثت بين المسيحيين راميرو الثـانى من أن يجتنى كل الثمرات التى كان ينتظر أن ينالها من وراء هذا الانتصار ، ولذلك لم تحدث هزيمة جيش عبد الرحمن أثرا بعيد المدى فى قوة الأندلس الاسلامية ومناعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عـــودته الى قرطبة جهـــداً فى اعادة تنظيم جيشه واصلاحه وتطهيره من العوامل الخطيرة التى أدت الى وقوع هذه الكارثة، وتخلص أمية بن اســـحاق من راميرو واستأمن عبد الرحمن فقبله عبد الرحمن أحسن قبـــول ، وكان عبد الرحمن يؤثر دائما أن يســتميل خصـــومه الأقوياء الذين يرجى نفعهم ، ويستفاد من كفاياتهم ، ولا يرى بأسا فى العفو عنهم والاغضاء عن سابق هفواتهم ، ولم يغفل عبد الرحمن عن السعى لافتداء محمد بن هشام الذى ناصره ووقف الى جانبه ، وقبل راميرو افتداءه بعد أن لبث فى سجن ليون زهاء ثلاث سنين .

وكانت ولاية قشتالة ترمى الى الانفصـــال عن مملكة ليون ، وحتى فى عهد اردونو الثانى والد راميرو ثارت مطالبة بالاستقلال ، وأعلن الملك أنه من أجل تسوية الخلاف بطريقة

ودية سيعقد مجلسا استشاريا فى تليارة الواقعة على شاطىء نهر كارون الذى يفصــل لون عن قشتالة ودعا اليه قوامس قشــتالة الأربعة ، وحينما قدموا أمر باعتقــالهم والاطاحة برءوسهم ، ولم يجادل الليونيون فى أن الفصل فى الموضوع بهذه الطريقة كان لا يخلو من مخالفة للأصول المرعية والأشياء المألوفة ، ولكنهم مع ذلك أعجبــوا بحزامة ملكهم ، وبراعته السياسية ، ولكن القشتاليين نظروا الى الأمر بطبيعة الحال من زاوية أخرى ، وحينما حرموا من قادتهم ظــلوا حينا من الزمن حائرين خائرى العزيمة يترقبون الساعة التى يقوم فيها على رأسهم رجل مقدامة يستطيع أن ينتقم لهم من الليونيين الخونة الغــادرين ، وأخيرا حانت تلك الساعة التى كانوا ينتظرونها بفــارغ الصــبر وقد وجدت قشــتالة الرجل الذى يستطيع أن تكل اليه قيادتهــا وينهض بالثأر لكرامتها وكان هذا الرجل الكونت فرنان جونزاليس ، الذى أصبح فيما بعد أحد أبطال العصر الوسيط المحبوبين يشيد ببطولته الشعراء فى قصــائدهم ويترنم بهـــا المغنـــون فى أغانيهم وما زال القشتاليون يذكرون اســـمه مقرونا بالتبجيل والاكبار حتى اليوم ، وفى الوقت الذى كان فيه عبد الرحمن يهاجم عاصمة بلاده ويهدم بيعها وصوامعهـا وقلاعها لم يكن من المنتظر أن يعمل الكونت العظيم ـ كما كان يسميه القشتاليون ـ على خلع نير الليونيين ، ولكنه بعد هزيمة عبد الرحمن فى معركة الخندق قدر أن العرب سيظلون حينا من الزمن غير مرهوبى الجانب ، وأن الفرصة للخلاص من سيطرة ليون قد لاحت ، فلم يتردد فى اعـــلان الحرب على الملك راميرو الثانى ، أما عبد الرحمن فقـــد وجد متسعا من الوقـــت لتنظيم جيشه واستكمال أهبته وفى نوفمبر ســـنة ٩٤٠م (٣٢٩هـ) أرسل

جيشا تحت قيادة أحمد بن يعلى حاكم بطليوس فهاجم حدود مملكة ليون .

ويقـــول ابن عذارى : « أنه(١) قتـل وسبى وأسر ، وأرسل مع كتابه الى قرطبة مائتى علج أسراء ، وكان هذا أول فتح لابن يعلى أذل به الطاغية ردمير (راميرو الثانى) » .

وحالف الحـظ الملك راميرو الثـــانى فى الحرب التى نشبت بينه وبين القومس فرنان جونزليس ففاجأ عدوه وغلبه على أمره وأسره وسجنه فى ليون وأقام على حكم قشتالة اسور فرناند قومس منتشون واستبدل به بعد ذلك ابنه سانكو ، ولم يقنع راميرو بهذا الانتصار وأتبعه بمصادرة الأرض التى كانت فى حوزة فرنان جونزاليس ، ولم يستول عليها جميعها وانما منـــح بعضها لفرســـان قشتالة البارزين ذوى المكانة المرموقة ولرجال الدين لكى يكتسب مودتهم ويحظى بمناصرتهم له ، ولكنه أخفق فى تحقيق هـذه الغـــاية ، فبرغم استفادة القشتاليين من هذا الـكرم السـيـاسى ظلوا شديدى التعلق ببطلهم الأسير ، وصنعوا له تمثالا كانوا يقدمون له الطـاعة والولاء ، ولم يستطيعوا أن يصبروا كثيرا على بقائه فى الأسر كما تدل الأنشودة القديمة التى تعد من روائع أناشيدهم وتعبر عن اعتزامهم على صدع قيوده واطلاق سراحه ، ومنها « لقـد أقسم الجميع على أنهم لا يعودون الى قشـــتالة دون أن يكون معهم سيدهم الكونت ، وقد أقاموا له تمثالا فى عربة حربية وعقدوا الخناصر على ألا يرجعوا الا اذا رجع معهم ، وبعد أن قدموا الولاء وضعوا علم الكونت الى جانب تمثاله ، وقبلوا جميعا سواء الشبان والشيوخ يد التمثال ، وقد خلت برغش

---

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٣١٥ .

وأحوازها من سكانها ولم يبق بها سوى النساء والأطفال » وفى أنشودة أخرى «لقد حملوا بعيدا كونت قشـــتالة العظيم الى ليون ، ثم قيدوا رجليه الى يديه قيدا مؤلما ، وطار بهم الفرح، وأولموا الولائم لاقتناصـــه ، حقا أن سجن الملك راميرو يضـــم أشجع بطل فى آسبانيا » .

وخشى الملك رامـيرو عاقبة غضـــب القشتاليين لحبس زعيمهم المحبوب فلم يجـد بدا من الاستجابة لرغبتهم فأطلق سراحه ، ولكن بشروط قاسية مذلة ، فقد أرغمه على أن يقسم يمين الولاء والطاعة له ، وأن يتنازل عن كل ما يملك وأن يعد بتزويج ابنته لأردونو أكبر أولاد راميرو ، وكان هذا هو الثمن لنيل الكونت حريته ، ومن الطبيعى أن يمتنع بعد ذلك عن مناصرة الملك الذى أمعن فى اذلاله كمـا لم يرض القشتاليين عدم رد السلطة الى هذا الرجل الذى كانوا يعدونه سيدهم غير مدافع ، وفقد راميرو بذلك معـاونة أشجع رعاياه ، ومن ثم عجزه فى مدافعة الغارة التى قام بهـــا المسلمون سنة ٩٤٤م (٣٣٢هـ) على جليقية(١) بقيادة القائد أحمد بن محمد بن الياس، وقد استطاع هذا القائد أن يغنم ويحرق جملة من حصونهم هنالك وقفل راجعا، واستطاع الناصر فى سنة ٣٣٥هـ (٩٤٦م) أن يعيد بناء مدينة سالم بالثغر الأوسط الشرقى وهى مواجهة لقشتالة ، وعهد فى ذلك الى قائده غالب الـنـــاصرى ، وأنفذ العهد الى قواد الثغر بالاجتماع لبنيانها ، فسارعوا الى أمره ، وبنيت أحسن بناء ، ونزل بهـــا المسلمون ، وأصبحت قاعدة هامة لمهـاجمة قشـــتالة ، ويقول ابن عذارى انه «فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٦م) ورد على الناصر كتاب من قند مولى الناصر القائد يومئذ بطليطلة يذكر فيه غارته على أهل جليقية، وكان

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٣١٦ .

أقصى مايستطيعه راميرو الثانى المنتصر فى موقعة شنتمنقش والخندق أن يقف من غارات قواد عبد الرحمن موقف المدافع، ولم ينشط الى القيام بغارة على الحدود الاسلامية الا فى سنة ٩٥٠م (٣٣٩هـ) وأحرز انتصـــارا قرب مدينة طلبيرة ، وفى السنة نفسها قام القـــائد أحمد بن يعلى بغارة على جليقية ، وافتتح ثلاثة حصون ، وفى يناير سنة ٩٥١م انتهـت حياة راميرو الثانى ، وحينما اختفى هذا الخصم اللدود من الميدان كان نفوذ عبد الرحمن قـد بلغ الذروة ، وازداد اطمئنانا من ناحية مملكة ليون لوقوع الحرب بين ابنى راميرو .

وكان راميرو الثانى قد تزوج مرتين ، فولدت له زوجته الأولى ، وكانت جليقية ، ابنـه أردونو ، وكان له من زوجته الثانية ــ اوراكا أخت غرسية ملك نافار ــ ابن آخر هوسانكو، ولما كان أردونو هو الابن البـكر لذلك كان من الطبيعى أن يطالب بوراثة عرش أبيه ، ولكن سانكو نازعه فى ذلك اعتمادا على مساعدة النافاريين له ، وقد حاول كذلك الاستعانة بتأييد فرنان جونزاليس والقشتاليين له ولم يكن من الصـعب على فرنان اختيار الجانب الذى يناصره ، وحقيقة ان فرنان كان حما اردونو ولكنه لم ينس أنه أرغم على قبـول أردونو زوجا لابنته ، وكانت هناك روابط عائلية تربطه بسانكو فقد كان سانكو ابن أخت زوجته وكان يســـتطيع الاعتماد على تأييد الملكة طوطة النافارية حماة فرنان وفضلا على ذلك فان سانكو وعد فرنان وعدا خلابا لم يترك له سبيلا للتردد ، فقد وعده بأن يرد اليه أملاكه المصادرة ويقيمه حاكما على قشتالة، فدعا فرنان أعوانه الى حمل السلاح ، وصـــحب سانكو والجيش النافارى فى الهجوم على ليون لانتزاع عرشـــها من قبضة أردونو الثالث ، وفى أثناء هذا الصراع على وراثة العرش كان

قواد عبد الرحمن يوالون الغارات الظافرة على الحدود ، وفى سنة (١) ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وردت قواد الثغور على الناصر وفيهم غالب ومطرف ومحمد بن يعلى وهذيل بن هاشم التجيبى وغيرهم وذكروا له أنهم اقتحموا حدود قشتالة ، وقصدوا حصنا من حصونها وتغلبوا على أرباضه وحينما وافتهم جموع النصرانية دارت معركة قتل فيها من الاسبانيين مقدار عشرة آلاف ووردت الى قرطبة الرءوس المحتزة فى هذه الهزيمة نحو خمسة آلاف رأس ، فأمر الناصر برفعها حول سور قرطبة ، وكان معظم هؤلاء القتلى من القشتاليين ، وقد أحرز فرنان انتصارا فى مناوشة عند مدينة شنت أشتيبن كما استطاع أردونو الثالث - بعد أن طرد أخاه وأرغم الجليقيين الذين نادوا به على الطاعة - أن يرد على غارات جيوش عبد الرحمن بمهاجمة لشبونة ونهبها ، ولكن هذه الهجمات كانت هينة الشأن بجانب الغارات التى قامت بها الجيوش الأندلسية على المسيحيين ، وخشى اردونو الثالث قيام ثورات أخرى فى مملكته ولذلك سعى فى طلب الصلح من عبد الرحمن، وأرسل رسله الى قرطبة فى سنة ٩٥٥م (٣٤٤هـ) وقبل الناصر هذه المبادرة ، وأرسل محمد بن حسين ومعه اليهودى شبروط لاجراء المفاوضة مع أردونو الثالث ، ولم تستمر المفاوضات طويلا فقد كان أدونو مستعدا لقبول شروط عبد الرحمن - وكان أكثرها بطبيعة الحال الموافقة على تسليم بعض الحصون وهدم حصون أخرى - وتم الاتفاق على أسس المعاهدة ، وعاد الرسولان الى قرطبة ليقر عبد الرحمن الاتفاق ، وبرغم أن المعاهدة كانت مشرفة ونافعة الا أن عبد الرحمن كان يطمع فى شروط أحسن عائدة وأبقى أثرا ، ولكنه كان قد تقدمت به

(٢) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٣٢١.
(١) البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثانى صفحة ٣٢٨ .

السن وناهز السبعين ، ولذلك استشار ابنه وولى عهده بعده الأمير الحكم ، وكان الحكم بطبيعته ميالا الى المسالمة فقبل المعاهدة ورضيها وأشار على الخليفة الناصر باقرارها ، فأقرها الناصر وبعد ذلك بقليل عقد الناصر اتفاقا مع فرنان جونزاليس ولم يبق بعد ذلك فى أسبانيا خصوم للمسلمين سوى النافرين ، وكان مما دعا الناصر الى قبول التساهل مع أردونو الثالث أنه كان يريد أن يوجه جيوشه الى مقاومه الفاطميين الذين كانت قوتهم في تزايد مستمر وكان يخشى تطلعهم الى الاستيلاء على الأندلس ، وبعد اقرار المعاهدة مع أردونو الثالث أعد حملة ضخمة لمهاجمة الفاطميين ، وفى أثناء انهماكه فى استيفاء الاستعداد لتوجيه هذه الحملة بلغه خبر وفاة أردونو الثالث فى سنة ٩٥٧م (٣٤٦هـ) وقد قبل أردونو الصلح واستجاب لمطالب عبد الرحمن ، وكان فى طليعة تلك المطالب تسليم بعض القلاع وهدم قلاع أخرى ، ولكن سانكو الذى نازع أخاه على العرش والذى خلفه عليه دون أن يلقى معارضة أبى أن يجيب هذين المطلبين ؛ ولذلك اضطر عبد الرحمن أن يحتجز القوات التى كان قد أعدها للارسال الى أفريقية ويوجهها الى مملكة ليون وأرسل الأوامر التى تتضمن ذلك الى قائده الشجاع أحمد بن يعلى حاكم طليطلة ، فتولى هذا القائد المظفر قيادة الجيش وانتصر انتصارا رائعا على ملك ليون ، وكان لهذا الانتصار وقع حسن فى نفسه لأنه لم يكن يريد هذه الحرب ولكن سلوك سانكو ملك ليون هو الذى أرغمه على خوضها .

وأراد الملك سانكو أن يكسر شوكة الأشراف فى مملكته ويقضى على نفوذهم فأضمروا له العداء ، وامتزج هذا العداء بالاحتقار والاستخفاف به ، ومن سوء حظه أنه فقد الصفات

التى قربته فى بادىء أمره من قلوب رعاياه ، فقـــد ازدادت بدانته وأفرطت حتى أصبح عاجزا عن امتطاء صهوة جواده ، وصار لا يقوى على المشى الا اذا كان مستندا على أحد اتباعه ، وبذلك كثر الاستهزاء به ، وبدأت تخـــالج نفـوس رعاياه الرغبة فى خلعه والخلاص منه ، وزادهم رغبة فى ذلك تحريض الكونت فرنان ، ودبرت مؤامرة فى الجيش لخلعه » وفى أحد أيام الربيع سنة ٩٥٨م (٣٤٧هـ) طرد من مملكته ، وبينما كان يسير فى طريقه الى بنبلونة مبتعدا محزونا ولاجئا الى حمى خاله غرسية عقد فرنان جونزاليس وغيره من الأعيان اجتماعا لاختيار ملك يولونه عليهم ، ووقع اختيارهم على أردونو — وهو رابع من تسموا بهذا الاســم — ابن ألفونسو الرابع — وهو ابن عم سانكو — ولم يكن له الصفات ما يؤهله لارتقاء العرش سوى انتسابه الى بيت الأسرة المالكة ، وكان أحـدب أشوه وضيع النفس دنىء الطبع مطبوعا على الخبث ولذا عرف بعد ذلك بلقبه « أردونو الخبيث » ، ولم يكن هنـاك أحد من أفراد الأسرة المالـكة قد بلغ سن الرشـد على قيد الحيـاة ، ولذلك كان اختياره ضرورة لا محيد عنهـــا ، وزوجه كونت قشتالة ابنته أوراكا أرملة أردونو الثـــالث وفى أثناء اجراء عملية الانتخـاب كان سانكو فى بمبلونة يروى ما أصـــابه ويبسط شكواه ، فعطفت عليه جدته الملـكة طوطة ، وكانت لا تزال تحكم نافار باسم ابنها برغم أنه قد بلغ منذ سنوات طويلة السن التى تؤهله لتولى الحـــكم ، وأخذت على عاتقها أن تناصره وتعيده الى ملـــكه مهـــما يكلفها ذلك من الجهد والمشـــقة ، ولم يكن القيـام بهذا العمل من هين الأمور ، فان سانكو لم يكن له أصدقاء يمـــكن أن يخفوا الى مناصرته فى ليون ، ولم يكن لمملكة نافار من القوة ما يكفى لفرض ارادتها على مملكة ليون ، ولذلك كان لزاما على طوطة أن تبحث عن

حليف قوى يستطيع أن يساعدها فى الهجوم على ليون وقشتالة معا ، ولكى يحتفظ سانكو بعرشه اذا رد اليه وأعيد الى جلوسه عليه فانه كان من اللازم أن تزول سمنته ، ويسترد رشاقته ، حتى لا يكون أضحوكة لرعيته ، ولم تكن هذه البدانة المفرطة فى طبيعة بنيته ، وانما كانت علة طارئة يمكن الطبيب الماهر أن يتولى علاجها ويبرئه من عقابيلها ، وفى قرطبة وحدها مستقر العلم ومنزل الاستنارة يوجد مثل هذا النطاسى البارع ، وفى قرطبة كذلك تستطيع الملكة طوطة أن تجد الحليف القوى الذى تستطيع أن تعتمد عليه وهى واثقة بانتصار قضيتها وتحقيق غايتها ، وموجز القول أنها صممت على أن تلتمس عند عبد الرحمن الدواء الذى يشفى علة حفيدها والجيش الذى يعيده الى عرشه ، وكان من الصعب على كبريائها أن تنزل الى طلب المساعدة من هذا الملك الذى ظلت الحرب قائمة بينه وبينها أكثر من ثلاثين عاما ، والذى لم يمر عام دون أن يهاجم أوديتها ، ويقتحم حدودها ، ويحرق قراها ويهدم قلاعها ، ولكن شدة تعلق الملكة طوطة بحفيدها ، وحرصها على أن تعيد اليه عرشه ، وترد اليه ملكه ، وغضبها للمعاملة السيئة التى عومل بها ، كل هذه العوامل تجمعت لتقاوم نفورها من موالاة عبدالرحمن والالتجاء الى حماه ولذلك بادرت بارسال وفد من قبلها الى قرطبة مزودا برسالة منها .

وحينما علم عبد الرحمن بموضوع الرسالة وافق على ارسال طبيب من قبله ليتولى علاج سانكو ، ووعد بارسال المساعدة الحربية للملك المخلوع بعد قبول الشروط التى سيتولى عرضها أحد وزرائه على الملكة طوطة فى بنبلونة ، وبعد أن غادر الوفد النافارى قرطبة استدعى عبد الرحمن الناصر طبيب بلاطه اليهودى حسداى بن شبروط ، وزوده

بالتعليمات اللازمة ، وأمره بالسفر الى بلاط نافار ، وكان حسداى مستأهلا للقيام بمثل هذه السفارة فقد كان يتقن الحديث بلغة مسيحيى الشمال ، وكان يجمع بين المهارة فى الطب والبراعة فى السياسة ، وكانت شهرته برجاحة العقل، وغزارة العلم ، وتعدد المواهب من المسائل الشائعة التى كثيرا ما تداولتها الألسنة ، وكان قبل ذلك بقليل قد قال عنه أحد السفراء الذين وفدوا من أقاصى ألمانيا على قرطبة أنه لم ير له مثيلا فى اللباقة السياسية والحنكة الدبلوماسية ، وعند وصول هذا اليهودى الى بنبلونة سرعان ما اكتسب ثقة سانكو بدأ علاجه مؤكدا له الشفاء السريع ، ثم ذكر له أن الخليفة عبد الرحمن فى مقابل هذه الخدمة التى سيقوم بها فى سبيل ابرائه من البدانة يريد أن تسلم اليه عشرة حصون ، فوعد سانكو بتسليم الحصون المطلوبة لعبد الرحمن متى رد اليه عرشه واستعاد ملكه ، ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ، فقد كان الخليفة قد أوصى حسداى بأن يعمل على اغراء الملكة طوطة على زيارة قرطبة ومعها حفيدها سانكو ، وكان الخليفة يرمى بذلك الى اشباع كبريائه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يخلب الباب رعيته ويوطد ثقتهم به واعلاءهم لشأنه واعجابهم بمواقفه بأن يعرض على أنظارهم مشهد الملكة المسيحية والملكين سانكو وغرسية وهم يقدمون له الولاء ويلتمسون مساعدته ، ولم يكن من السهل حمل الملكة طوطة على قبول ذلك ، فقد كان فى ارتحالها الى قرطبة اذلال لكبريائها أكثر وأشد على نفسها من الاذلال الذى تجرعته حينما وجدت نفسها مضطرة الى التقرب من عبد الرحمن وطلب مهادنته ونشدان مساعدته ، ولذلك كان هذا هو الجزء الشائك الدقيق العويص فى سفارته والذى يحتاج الى كل ما أوتى من حسن التأتى وسعة الحيلة ولطافة المدخل وبراعة العرض ، وقد استطاع هذا اليهودى

البارع القدير أن يبرر كل الصفات التى اتصف بها ويثبت ويؤكد ما اشتهر عنه من أنه أقدر ساسة العصر وأبرع سفرائه ، فقد تمكن بلين كلماته وعذوبتها ونضج حكمته وعمق دهائه وسعة حيلته من أن يجعل الملكة تدرك أن استعادة عرش حفيدها رهن بقبولها لهذه الرحلة المطلوبة الى قرطبة ٠

وحضرت الى قرطبة الملكة طوطة ومعها ابنها جارسيا وسانكو السيىء الحظ وكان يمشى مستندا على حسداى لأنه لم يكن قد استعاد صحته واستكمل علاجه بعد وصحبها عدد كبير من أعيان الدولة ورجال البلاط والقساوسة ، واحتفل الخليفة عبد الرحمن بقدومهم احتفالا فخما رائعا ترك فى نفوسهم أثرا عميقا وأظهر لهم عظمة ملك عبد الرحمن وروعته وضخامة ثروته وسمو حضارته ، وشعر عبد الرحمن بأنه قد أشبع طموحه وأرضى عزته وكبرياءه واعتداده بنفسه حينما رأى ابن خصمه العنيد راميرو الثانى الذى انتصر فى معركة شنت منقش ومعركة الخندق والملكة طوطة الجريئة التى قادت جيوشها الى النصر فى معارك لها تاريخ يقدمان له دلائل الطاعة والولاء ولكنه أخفى مشاعره وتلقى ضيوفه بكياسته المعهودة وكرم أخلاقه المعروف ، وجدد سانكو وعده بتقديم الحصون العشرة الذى سبق أن اتفق عليه مع حسداى ، واستقر الرأى على أن يهاجم جيش مملكة ليون فى الوقت الذى يغزو فيه جيش نافار قشتالة ويستدرج قوات فرنان جونزاليس بعيدا عن مملكة ليون ٠

وتقدم بعد ذلك جيش عبد الرحمن لمهاجمة مملكة ليون وصحبه سانكو ، وكان قد أفاد من علاج حسداى فخف وزنه وزالت بدانته وأصبح نشيطا خفيف الحركة كما كان قبل أن يبتلى بالبدانة ، وكانت سمورة أول مدينة استولى عليها الجيش ، ولم يأت ابريل سنة ٩٥٩ م (٣٤٨ هـ) حتى كان

سانكو قد استرد سلطته على جزء كبير من مملكته ، وكانت العاصمة لاتزال خاضعة لأردونو الرابع ولكن فى خريف سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) فر من العاصمة أردونو الرابع ولجأ الى استريش ، وسلمت العاصمة لسانكو ، ولما استرد سانكو مملكته أوفد رسولا الى الخليفة يبلغه شكره له لمساعدته له فى استراد ملكه ويعلن للدول المجاورة عودته آلى السيادة على مملكة ليون ، وفى الرسائل التى تضمنت هذا الاعلان اشار اشارات قاطعة الى عدم ولاء قومس قشتالة ، وهاجم النافاريون قشتالة طبقا للخطة الموضوعة وفى السنة نفسها - سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) وحاربوا القومس وتمكنوا من أسره ، وتخلص الليونيون من اردونو الذى كان مكروها ومحتقرا وفرضه عليهم فرنان ، وبعد قليل طرده أهل آستوريش وخضعوا لحكم سانكو واضطر أردونو الى اللياذ ببرجس ولم يزل الناصر على موالاته واعانته لملك ليون .

وفود الأمم فى بلاط
عبد الرحمن الناصر

يقول الأستاذ المؤرخ ج . ب . ترند مؤلف كتاب « حضارة أسبانيا » فى الفصل القيم الذى كتبه فى « تاريخ العالم » الذى نشره بالانجليزية السير جون أ . هامرتن (١) ومع أن عصر أمراء قرطبة وخلفائها يعد أزهى عصور أسبانيا الاسلامية فانه لم يبق من عمائر هذا العصر الا المسجد الجامع اذ أن عبد الرحن الأول أقام سنة ٧٥٦ م لبنى أمية ملكا بأسبانيا ، ولم يتوان عن العمل للوصول بمملكته الى ذرى العظمة والمجد .

وعلى الرغم من أن التاريخ السياسى لزمنه وزمن خلفائه حافل بالحروب الداخلية والثورات فلاشك أن التاريخ قد أسرف فى تقدير أهميتها ، فلم يكن تاريخ أسبانيا فيما يقال سوى قصة الجريمة والعقاب المعروفة ، وترتب على ذلك أن ممتلكات الأمويين لم تتحد فعلا الا زمن أول خلفائهم عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٩١٢ م - ٩٦١ م اذ جعل من أسبانيا الاسلامية دولة لم تلبث أن ارتفعت فى سرعة فى مدراج العظمة والهيبة ، وكانت وقتذاك الدولة المتحضرة

---

(١) العدد ٦٠ من تاريخ العالم صفحة ٧٤٦/٧٤٧ .

الوحيدة فى كل أوروبا ، اذ أن اسبانيا الإسلامية كانت الدولة الوحيدة التى لم يجر عليها ما جرى بسائر أوروبا فى القرن العاشر من مظاهر الانحطاط والهمجية ، فقرطبة وأشبيلية وسائر مدن اسبانيا الاسلامية والبرتغال كانت المصابيح الوحيدة فى تلك الدياجير الشاملة .

على أن ما اشتهرت به الحاضرة قرطبة من جمال وما تمتع به أهلها من رخاء يعتبر من أعاجيب الدنيا ، فالرحالة القادمون من الشمال كانت تستبد بهم الرهبة والدهشة كلما استمعوا الى حديث مدينة تشتمل على مائة وثلاثة عشر ألفا من المنازل وثلاثة آلاف مسجد . وتسعين مكتبة وتسعمائة من الحمامات العامة ، ومن هؤلاء الرحالة السفير الألمانى الذى مثل الامبراطور أوتو الأول لدى الخليفة الأموى بقرطبة ، أما سفير الخليفة بمدينة فرانكفورت فكان مسيحيا وهو أسقف غرناطة ، واذ عرف هذا السفير الألمانى شدة ميل الخليفة للاستحمام أحضر معه عند عودته من مهمة قام بها فى بيت المقدس حوض استحمام مذهب مزخرف من الداخل بالنقوش وجلب أيضا حوضا أصغر حجما مصنوعا من الرخام امتاز بما نقش بداخله من صور لأشخاص وجعل الخليفة هذا الحوض بمدينة الزهراء التى كان ينتقل اليها صيفا والتى تقع أطلالها على مسافة ثلاثة أميال من شمال غربى قرطبة الحالية ، وبلغ من رواء قصره وجماله أن ما أورده المؤرخون المسلمون من وصف له قد جعله كأنه قصر من قصور ألف ليلة وليلة ».

ولم يكن الرحالة الألمانى السفير الذى مثل الامبراطور أوتو أول سفير ولا آخر سفير حضر الى قرطبة ، وقد كانت العلاقات بين الدولة العباسية فى المشرق والدولة الأموية فى الأندلس تدعو ـ على الأقل من الناحية السياسية ـ الى وجود

علاقات بين العباســـيين والدولة الألمانيــة من ناحيــة وبين البيزانطيين والدولة الأموية الأندلسية من ناحية أخرى فى سبيل حفظ التوازن ، فقد كانت الدولة البيزانطية والدولة الألمانية والدولة العباسية والدولة الأموية الأندلسية أقوى الدول فى العصر الوسيط ، ورأى العباسـيون أن مصحلتهم السياسية تقتضى اقامة علاقات ودية مع الدولة الألمانية من أجل مناوأة الدولة الأموية الأندلسية ، وفرضت الاتجاهات السياسية على حكومة قرطبة أن تنشىء من ناحيتها علاقات مع الدولة البيزنطية لتتقى هجوم العباسيين على الأندلس ، وقد حاول الخليفة العباسى المنصور الاستيلاء على الأندلس حينمـا استطاع عبد الرحمن الداخل أن ينشىء بها امارة أموية مستقلة تعمـــل على مناوأة الدولة العباســـية فى المشرق ، وتمكن عبد الرحمن الداخـل بيقظته المستمرة وجهـــاده الدائب من القضاء على هذه المحاولة ، بل جعل المنصور لا يفكر فى العودة لهذه المحاولة ، وآثر المنصور أن يكون له علاقات حسنة ببيبن القصير ابن شارل مارتل الذى انتصر على العرب فى موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢ م (١١٤ هـ) ووالد الامبراطور شارل الأول (شارلمان) (١) وقد عقد ببين القصير صلات مع خليفة بغداد وأرسل فى سنة ٧٦٥ م (١٤٨ هـ) رسلا لبثوا ثلاث سنين حتى رجعوا الى فرنسا ومعهم رسل الخليفة ثم عادوا الى بغداد ومعهم الهدايا الى الخليفة ويقال ان المنصور حرض ببين على قتـال عبد الرحمن الأموى فى الأندلس ، وكان خلفـــاء الشرق يحاســنون ملوك الفرنجة ويتبادلون واياهم الهـدايا والألطاف وملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا فى حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر ، وقد أفاد

---

(١) الاسلام والحضارة العربية للأستاذ كرد على جزء ٢ صفحة ٤٢٣ .

شارلمان من هذه السياسة فأنشأ علاقات مع هارون الرشـيد وتبودلت الهدايا بينه وبين الرشيد ، وهذه الصداقة والعلاقات الطيبـة بين شارلمان والرشيد وبين والد شارلمان والعباسيين مما شجعت شارلمان فى سنة ٧٧٧ م (١٦١ هـ) على الاستجابة للاشترك فى المؤامرة التى دبرها ثلاثة من خصوم عبد الرحمن الداخل وهم عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى وسليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى حاكم برشلونة وأبو الأسود ابن يوسـف الذى انتـزع منه الداخـل امارة الأندلس ودخل شارلمان أسـبانيا بجيوشـه الجرارة وحاصر سرقسطة وبينما كان يتأهب لاستكمال هذا الحصار ترامت اليه الأنباء بأن الزعيم السكسونى وينكند انتـهز فرصة غيـاب جيش شارلمان فى أسبانيا وعاد الى سكسونيا وأزكى حمية السكان فعادوا الى الثورة ، واكتسحوا البلاد ، ووضعوا السيف والنار وتوغلوا حتى حدود الراين ، فلم يجد شارلمان ازاء تلك الاخبار المقلقة سـوى أن يقوض خيامه لساعته ويبتدر العودة من شواطىء الابره الى شواطىء الراين ، ومر جيشه من ممرات رونسسفال ، وعلمت بذلك قبـائل البشكنش وكانت تكره قبائل الفرانك كراهة شـديدة فاختبأوا فى الاحراج والمنعطفات المشرفة على آخر الوادى فى أقصى نواحيه واغتنموا فرصة اقبال المساء وتفرقوا تحت ستار الظلام فى كل ناحية من نواحى الوادى الجبلية وانقضـوا على مؤخرة الجيش وفتكوا بها فتكا ذريعا ، وكان فيمن قتل رولاند البطل المعروف والشاعر الذائع الصيت وصديق شـارلمان الحميم ، فبكاه شارلمـان أمر بكاء ورثاه أحر رثاء وقد كان وجـود الدولة الاموية بالأندلس شوكة فى جنب الخلفاء العباسيين ، وكانت فكرة غزو بلاد الأندلس وضمها الى ملك العباسيين تشـغل بال الخلفـاء العباسيين الأوائل الذين جاءوا بعـد أبى جعفر

المنصـــور كما استأثرت باهتمامه ، والسـيوطى يقول عن الخليفة المعتصم (١) « كان المعتصم قد عزم على المسـير الى أقصى المغرب ليملك البلاد التى لم تدخل فى ملك بنى العباس لاستيلاء الأموى عليها ، فروى الصولى عن أحمد بن الخطيب قال : «قال لى المعتصم ان بنى أمية ملكوا وما لأحد منا ملك ، وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموى فقدر ما يحتاج اليه لمحاربته ، وشرع فى ذلك ، فاشتدت عليه علته ومات » ٠

وبدأت العلاقات الودية بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية بالأندلس فى عهد الامبراطور البيزنطى (٢) تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢ م) فقد اشتد العداء بينه وبين الخليفة المعتصم ابن هارون الرشيد ، فقد قام الامبراطور بتخريب حصـن زبطرة الاسلامى ، ورد المعتصم على ذلك بهجومه على عمورية (٢٢٣ هـ ٨٣٨ م) ورأى الامبراطـور البيزنطى محـالفة الأمويين بالأندلس انتقاما من العباسيين ، ولذلك أرسل سفيره كرتيوس ومعه هدايا نفيسة ورسالة الى عبد الرحمن الأوسط يطلب صـداقته ويناشده عقد معاهدة صـداقة ويحرض على انتزاع الشام من العباسيين التى كانت مقرا للخلافة الأموية فى المشرق ويرجوه أيضا انتزاع جزيرة كريت من الأندلسيين وردها للبيزانطيين وكان ذلك سـنة ٢٢٥ هـ (٣٨٩ م) فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال ـ كما يقول المقرى فى النفح ـ فأحكم بينهما الصلة واعتذر عبد الرحمن عن عدم استطاعته اجلاء الأندلسيين من جزيرة كريت لأنهم صاروا غير تابعين له ولا سيطرة له عليهم ٠

وقد مهدت هذه العلاقات لتوثيق الصلات بين الأمويين والبيزانطيين فى عهد عبد الرحمن الناصر، فقد عمل الامبراطور

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى صفحة ٢٢٣/٢٢٤ ٠

(٢) العرب والحضارة للدكتور على حسنى الخربوطلى صفحة ٢٨٥ ٠

قسطنطين بورفير وجنيتس (٩١٢ ـ ٩٥٩ م) على توطيد تلك العلاقة وتجديد هذه الصلة ففى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧م) وفدت على الناصر رسله وهديته ، واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود ويقول(١) ابن خلدون في وصف ذلك اليوم «ركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكة ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحمل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والاخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة فى مواقفهم ، ودخل الرسل فهالهم ما رأوه ، وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا فى ذلك الحفل ، ويعظموا من الاسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه ، وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا فى القول فارتج عليهم . وكان فيهم أبو على القالى وافد العراق وكان فى جملة الحكم ولى العهد وندبه لذلك استئثارا فعجز، فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطى من غير استعداد ولاروية ولاتقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجلى فى ذلك القصد وأنشد شعرا طويلا ارتجله فى ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع » .

ويقول المقرى فى النفح(٢) متحدثا عن استقبال الناصر لوفد امبراطور القسطنطينية « تأهب الناصر لورودهم ، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج الى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج الى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبية ، فتلقوهم قائدا

(١) صفحة ٣٤١ من الجزء الأول من كتاب نفح الطيب (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد) .

(٢) صفحة ٣٤٣ من الجزء الأول من كتاب نفح الطيب .

بعد قائد ، وكمل اختصـــاصهم بعد ذلك بأن أخرج اليهم الفتيين الكبيرين من الخصيين ياسرا وتماما ابلاغا فى الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القواد ، فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واكرامه ، لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة ، لأنهم أصـــحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى ، وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم المنســـوبة الى نصـــير بعدوة قرطبة فى الربض ، ومنعوا من لقـاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طرا ، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجوه الحشم ، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربعة منهم ، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه ، فقعد لهم يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة فى بهو المجلس الزاهر قعودا حسنا نبيلا ، وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه الحكم ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان ، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلا لم يطق الحضور ، وحضر الوزراء والموالى على مراتبهم يمينا وشمالا ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صـحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور ، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السـلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين ابن ليون ، وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا مكتوب بالذهب بالخـط الاغريقى ، وداخل الـكتاب مدرجة مصبوغة أيضـا مكتوبة بفضـة بخط اغريقى أيضـا فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل

على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج ، وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، وفى سطر آخر الى العظيم الاستحقاق ، للفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه ! » .

وأحب الناصر أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليشيدوا بجلالة مقعده ، وعظيم سلطانه ، وما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته . وكان قد تقدم الى ابنه الامير الحكم ولى عهده باعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام نشيد الشعراء ، وفى رواية ان الحكم أمر الفقيه محمد بن عبد العزيز الكشكينانى (وهو من قرية كشكينان احدى قرى قنبانية) بالتأهب لذلك واعداد الخطبة المناسبة ، وكان هذا الفقيه يدعى من القدرة على تأليف الكلام ماليس فى وسع غيره ، فلما قام يحاول التكلم بما رأى ويصف الموقف هاله المشهد ، وبهره هول المقام ، وأبهة الخلافة ، فلم يهتد الى لفظة ، بل غشى عليه وسقط على الارض ، وفى رواية أخرى أن الحكم كان قد أوصى أبا على البغدادى اسماعيل بن القاسم القالى صاحب كتاب الأمالى والنوادر وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق ، وكان يعد فى عصره من كبار علماء اللغة وأمراء البيان ، وكان مقربا من الأمير الحكم ، فلما ارتج على الكشكينانى وأصابه البهر قيل للقالى « قم فارقع هذا الوهى» فقام القالى ، وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم

انقطع به القول » وتوقف ساكنا مفكرا فى كلام يدخل به الى ذكر ما أريد منه ، وسـواء كان القائل هو المأمور بالكلام أولا والمعد لذلك أو كان الكشكينانى فان كليهما عجز عن الكلام، ولم تحتمل أعصابه روعة الموقف ، وهنا تقدم منذر بن سعيد وكان قد دعى فى زمرة الفقهاء ، وأنقذ الموقف ، ويصف لنا الفتح بن خاقان فى المطمح موقف منذر بن سعيد قائلا (١) :

« لما رأى ذلك منذر بن سعيد قام بذاته ، بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبى على لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادى من الاحسان فى ذلك المقام كل مجيب ، يسحه سحا كأنما كان يحفظ قبل ذلك بمـدة ، وبدأ من المـكان الذى انتهى اليه أبو على البغدادى ، فقال :

« أما بعد فان لكل حادثة مقاما ، ولكل مقـام مقال ، وليس بعد الحق الا الضلال ، وانى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فاصغوا الى بأسـماعكم ، وأمنوا على بأفئدتكم ، معاشر الملأ ، ان من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت ، وان الجليل تعالى فى سـمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومه بنعم الله جل وعز عندهم، وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسـوة حسنة ، وانى أذكركم بنعم الله تعالى عليكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم ، وأسند اليه امامتـكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش

---

(١) مطمح الأنفس صفحة ٤٣ .

والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهيد كنف العاقبة بعد أستيطان البلاء ، أنشدكم الله يا معشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها!، ألم تكن البـــلاد خرابا فعمرها ، وثغـــور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخـلافته ، وتلافيه جمع كلمتـــكم بعـــد افتراقها بامامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يدا على عدوكم ، بطوية خالصة وبصيرة ثابتة وافرة ، بعـد ان كان بأسكم بينكم ، فأنشـــدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعـد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك الى القواد والأجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهى محبـــوبة ، وترك الركون الى الراحة وهى مطـلوبة ، بطوية صـحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصـــيرة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبـة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مستغلا لما ناله فى جانب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لهـا غارب الا جبه ، ولا نجم لأهلهـا قرن الا جـده ، فأصـــبحتم بنعمة الله اخوانا ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصـين والأدنين مســتخدمة اليه واليـــكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده،

وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلها قائم ، وجفنها غير نائم ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم — الآية ، وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ، ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق الى سبل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قرارا ، وأمنعهم دارا ، وأكثفهم جمعا ، وأجملهم صنعا ، لا تهاجمون ولا تذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لأمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ، فان من نزع يدا من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها، والتمسك بعروتها ، حفظ الاموال ، وحقن الدماء ، وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فانه تبارك وتعالى يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) — الآية ، وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملتكم ، الآخذين فى مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين

والمرسلين ، أقول هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين مستغفرا الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين » .

وقد أعجب الذين حضروا هـذا الحفـل الرائع بحسن مقام منذر بن سعيد ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الخليفة الناصر نفسه أشدهم تعجبا منه ، فأقبل على ولى عهده ابنه الحكم يسائله عنه ولم يكن يثبت معرفته ، وقد سمع باسمه ، فقال له الحكم : هو منذر بن سعيد البلوطى ، فقال الناصر « والله لقد أحسن ما شاءه ، فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهى فانه لبديع من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته ، انه لأعجب وأغرب « ولئن أبقانى الله تعالى لأرفعن من ذكره ، فضع يدك عليـه يا حكم واسـتخلصه وذكرنى بشـأنه فما للصنيعة عنه مذهب » ، وكان ذلك سبب اتصاله بالناصر واستعماله له .

وقد نظم منذر بن سـعيد فى هذه الواقعة أبيـاتا من الشعر يقول فيها : —

مقالى كحد السيف وسط المحافل
فرقت به ما بين حق وباطل

بقلب ذكى ترتمى جمراته
كبـارق رعد عنـد رعش الأنامل

فمـا دحضت رجلى ولا زل مقولى
ولا طاش عقـلى يوم تلك الزلازل

وقد حدقت حولى عيـون اخالها
كمثـل سـهام أثبتت فى المقـاتل

لخير امام كان أو هو كائن
لمقتبل أو في العصور الأوائل

ترى الناس أفواجا يؤمون بابه
وكلهم ما بين راج وآمل

وفود ملوك الروم وسط فنائه
مخافة بأس أو رجاء لنائل

فعش سالما أقصى حياة مؤملا
فانت غياث كل حاف وناعل

ستملكها ما بين شرق ومغرب
الى درب قسطنطين أو أرض بابل

وينقل المقرى فى النفح عن ابن سعيد صاحب «المغرب» انه لما فرغ منذر بن سعيد من خطبته أنشد :ـ

هذا المقام الذى ما عابه فند
لكن قائله أزرى به البلد

لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا
لكننى منهم فاغتالنى النكد

لولا الخلافة أبقى الله حرمتها
ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد

ويقول المقرى « كأنه عرض بأبى على القالى وتقديمهم اياه فى هذا المقام » .

ولما انصرف رسل الامبراطور بعث الناصر معهم سفيره هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ، ويوثق عرى التحالف بين المملكتين ، فرجع بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ويعلق الأستاذ عبد الله عنان على هذه السفارة

بقوله(١) « أكبر الظن أنها لم تكن الا تجديدا لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الاســـلام بالاندلس ، وتوطيدا للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن بن الحـكم لتكون شبه تحالف مثالى ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة ، وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه الى تنظيم الخطط المشـــتركة لمقـــاومة الدولة الفـاطمية الفتية التى بدأت تزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى » .

ويرى ليفى بروفنســـال ان هناك أسـبابا عدة دعت عبد الرحمن الى تجديد العلاقات مع القسطنطينية ، وكان قد مضى على انقطاعها زمن ، وفى طليمة هذه الأسباب مكانة القسطنطينية وشهرتها فى القرن العاشر الميلادى ، فقـــد ظلت القسطنطينية ملكة العـــالم المتحضر ، ووارثة العـلم والفلسـفة والفن اليونانى ، وكانت مكانتها وجلالها وبهاؤها يكسف أغنى بلاد الاسلام ، وكان الكثير من الآيات الفنيـة بها شاهدة على عبقريتها فى البناء والفن والرسم والزخرفة، ودولة معنية بالفن والثقافة مثل الدولة الأموية الأندلسية كانت لا تجد محيصا عن محاولة الاستفادة باحتكاكها بالعالم البيزانطى وبخـاصة اذا كان هذا الاحتكاك يفيد كذلك من الناحية السياسية ، وكانت قرطبة تحـذو حـذو بغداد فى بناء المســاجد والقصــور واتخاذ الأثاث والأمتعة الفاخرة والمـلابس وألوان الزينــة ، ويسـتخلص من حـديث ليفى بروفنستال فى هذا الصدد أن عبد الرحمن أراد أن يقلل من تأثير العراق فى الحضارة الأندلسية وحياة الأندلسيين ،

(١) تراجم اسلامية شرقية وأندلسية للاستاذ عبد الله عنان صفحة ١٦٧ .

وكان هـــذا الاتجاه من بواعث ترحيبه باقامة علاقات مع القسطنطينية ، وقد ظهر أثر ذلك فى تشييد مدينة الزهراء، وقد استحضر عبد الرحمن عمالا يونانيين وخبراء بفن البناء من بيزانطة لتدريب البنائين الأندلسيين ، وأفاد من ذلك فى تنسيق قصور الزهراء ومبانيها .

وقد استمر تبادل السفراء بين قرطبة وبيزانطة من الحين الى الحين فى أثناء حكم الحكم الثانى وبقى الى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى .

وكانت هناك مراسلات بين أوتو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣م) ابن الأمبراطور هنرى الأول ملك الألمان وبين عبد الرحمن النـــاصر ، وقد كتب أوتو يشكو الى عبد الرحمن غارات القراصنة الأندلسيين فى شـــواطىء البحر المتوســط وفى الطرق جنوب فرنســـا وفى شمال ايطاليا وفى سويسرة نفســـها ، وانه يحمل حكومة قرطبة تبعة هذه الغـارات الضـــارة والاعتداءات المتكررة ، وقد رد النـــاصر على هذه الرسالة برسالة شديدة اللهجة كان لها تأثير سىء فى البلاط الامبراطورى ، ويبدو أن العلاقات بين أوتو والناصر تحسنت بعد ذلك ، واقتنع امبراطور ألمانيا بأن حكومة قرطبة ليست لها علاقات بالمستعمرات العربية فى بروفنس وغيرها ، وأنها لا تتحمل تبعة أعمـــال هؤلاء المغيرين على حدود الامبراطورية الألمـانية ولا وقف أعمـــال القراصنة لأنهم خارجون على طاعتهـــا ، ويروى لنا دوزى بمناسبة هـــذه المراســـلات والسفارات بين أوتو وعبد الرحمن الحديث الذى دار بين عبد الرحمن الناصر ورسل أوتو ، وكان عبد الرحمن حينذاك قـــد قضى على ســـيطرة الأسر الارستقراطية ، وجرد زعماءها من النفوذ ، فقد قال لهؤلاء السفر « انى أسلم بأن ملككم

ملك حكيم وقدير ، ولكن سمة واحدة من سمات سياسته فى توجيه شئون الدولة لا أستسيغها ، فهو بدلا من أن يضع مقاليد الحكم كلها فى يده فانه يسمح لاتباعه بمشاركته فيها ، بل يسمح لهم بامتلاك مقاطعاته ظانا انه بذلك يوثق علاقتهم به ، وهذا خطأ خطير ، فان هذا التنازل للأشراف يغذى كبرياءهم ونزوعهم الى الثورة » وتكشف لنا هذه المصارحة ميل عبد الرحمن الى الاستئثار بالسلطة وجمعها فى يده ، وقد يكون للرجل الذى عانى الأمرين من تمرد زعماء القبائل وثورات الأشراف فى كل ناحية من نواحى دولته ان ينزع الى تركيز السلطة فى يده حسما للثورات ، ومنعا لحدوث الاضطرابات ، ولاضطراره الى الاعتماد فى توطيد سلطته واقرار نفوذه على صنائعه من الصقالبة الذين كان يظلهم برعايته ويبوئهم أرفع مناصب الدولة ، ويجعلهم موضع ثقته ، وحملة أمانته ، غير مبال بشعور زعماء العرب والبربر ، وكانت هذه السياسة من اسباب هزيمة الخندق .

وقد وفدت على قرطبة رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ هوتو ، والملك كلدة من ملوك الفرنجة بقاصية المشرق ، وجاءت الى قرطبة رسل البابا يوحنا الثانى عشر تطلب السلم والمودة بين الاسلام والنصرانية ، فاجابهم الناصر الى ما طلبوا ، وتدل هذه السفارة على الاعتراف للناصر بسمو المكانة وترامى النفوذ فى العالم الاسلامى .

وهكذا كان بلاط عبد الرحمن يأتى اليه السفراء من مختلف أوروبا ومن الولايات الافريقية والمغرب الأقصى ، وتعمل على التقرب منه ، وعقد صلات المودة بينه وبين الملوك والأمراء والقادة والزعماء .

قرطبة والزهراء

كانت قرطبة عاصمة الأندلس ، ومقر خلافة عبد الرحمن الناصر ، وقد بلغت في عهده أوج العظمة والازدهار ، ويتبارى مؤرخو الأندلس والمغرب في الاشادة بقرطبة ووصف قصورها ومتنزهاتها ، وروعة مناظرها وطيب هوائها فالحجاري يقول في المسهب(١) « كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ، ومجتمع اعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، واليها كانت الرحلة في الرواية اذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الانهار ، مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار ، تصدح في جنباته الأطيار وتنعر النواعير ، ويبسم النوار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء ، حاضرتا الملك وأفقاه النعماء والسراء ، وان كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك عادته وسل الخورنق والسدير وغمدان ، وقد أعذر بانذاره ، اذ لم يزل ينادي بصروفه لا أمان لا أمان ، وقد قال الشاعر : —

ومازلت أسمع أن الملو
ك تبني على قدر أخطارها

ويروى أن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن قال لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي : —

(١) الجزء الأول من نفح الطيب صفحة ١٤٦/١٤٧ .

ما عندك فى قرطبة ؟

فقال له العنسى : ــ « ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها » .

فقال يوسف : « ان ملوك بنى أمية حين اتخذوها حاضرة ملكهم لعلى بصيرة ، الديار المنفسحة الكبيرة والشوارع المتسعة ، والمبانى الضخمة المشيدة ، والنهر الجارى ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحرث العظيم ، والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها » .

فقال العنسى « ما أبقى لى أمير المؤمنين لأقول »
وفيها يقول بعض علماء الأندلس : ــ

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شىء وهو رابعها

ويقول المؤرخ الأندلسى الرازى فى قرطبة : «قرطبة(١) أم المدائن ، وسرة الأندلس ، وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والاسلام ، ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة التى هى احدى غرائب الأرض فى الصنعة والاحكام، والجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس والاسلام أكبر منه » .

ويعود الحجارى الى وصفها قائلا : « حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة هى كانت الغاية ومركز الراية ، وأم

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ٩ .

القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الامام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب فى تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب » .

ويقول المقرى فى النفح(١) «وفى بعض التواريخ القديمة كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا ، وتسعمائة حمام ، وأحد عشر حماما ومائة ألف دار ، وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصا ، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ، هكذا نقله فى المغرب » .

وقد اشتهر(٢) فى قرطبة مسجدها الجامع ، وكان الذى ابتدأ بناءه عبد الرحمن الداخل ، ولميكمل فى زمانه ، وكمله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه حتى صار يضرب به المثل ، ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء ، وكان هذا الثامن عبد الرحمن الناصر ، ومن حديث الفقيه الكاتب ابى محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبنى فى وصف هذا الجامع « شخصت الى حضرة قرطبة منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر والجامع — قدس الله تعالى

---

(١) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٧٩ .

(٢) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٩٠ .

بقعته ومكانه ـ قدكسى ببردة الازدهاء ، وجلى فى معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول فى سنان ، أو أشرء فى أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل . وكأنما الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فنرى نهاراً قد أحدق به ليل ، كما أحدق بربوة سيل ، ليل دامس ونهار شامس ، وللذبال تألق كنضنضة الحيات أو اشـــارة السبابات فى التحيات ، قد أترعت من السليط كئوســـها ووصلت بمحاجين الحـــديد رءوسها ، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عصبت بها تفاح من الصفر كاللقاح الصفر ، بولغ فى صقلها وجلائها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها جليت باللهب، وأشربت ماء الذهب ، ان ســـمتها طولا رأيت منها ســـبائك عسجد أو قلائد زبرجد ، وان أتيتها عرضا رأيت منها أفلاكا ولكنها غير دائرة ، ونجوما ولكنها ليست بسائرة ... والناس أخياف فى دواعيهم ، وأوزاع فى أغراضهم ومراميهم ، بين ركع وسجد ، وايقاظ وهجد ، ومزدحم على الرقاب يتخطاها ، ومقتحـــم على الظهـــور يتمطاها كأنهم برد خـــلال قطر ، أو حروف فى عرض سطر ، حتى اذا قرعت اسماعهم روعة التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا بالأثواب ، وتساقوا بالأكواب ، كأنهم حضـــور طال عليهم غياب ، أو ســـفر أتيح لهم اياب ، وصفيك مع اخوان صدق ، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق ، ـ فاكرم بها مساع تشوق الى جنة الخلد ويهون فى الســـعى اليهـــا انفاق الطوارف والتلد ، تعظيما لشعائر الله ، وتنبيها لكل ساه ولاه » .

وقد أمر الناصر فى سنة ٣٤٠ هـ بهدم الصومعة الاولى (المئذنة) وأقام صومعة بديعة بدلا منها ، فحفر فى أساسها

حتى بلغ المـاء مدة من ثلاثة وأربعين يوما ، ولمـا كملت ركب الناصر اليها من مدينة الزهراء ، وصعد فى الصومعة من احد درجيها ، ونزل من الثانى ، ثم خرج وصلى ركعتين فى المقصورة وانصرف ، وكانت الصومعة الأولى ذات مطلع واحد فصير لها مطلعين فصل بينهما البناء فلا يلتقي الراقون فيها الا بأعلاها .

ويقول الدكتور حسين مؤنس (١) « مســـجد قرطبة الجامع هو ـ دون شك ـ آضخم عمل معمارى قام به العرب فى الشرق أو الغرب على السواء ، فان مســـاحة الصحن المسقوف ٤٨٦٨ مترا مربعا ، أى مايزيد على الفدان ، فاذا اضفنا الى ذلك الفناء غير المسقوف ـ وهو بقية صحن الجامع يحيط به سوره ـ كانت مساحته ١٢١٨٩ مترا مربعا ، أى نحو ثلاثة افدنة ، وعدد السوارى ، أى الأعمدة ، الباقية الى اليوم يزيد على ١٢٠٠ سارية ، ومحراب هذا المسجد أروع محاريب الجوامع الأثرية البـاقية الى اليـــوم ، والحلول الهندسية التى وفق اليها المعمارى الأول الذى وضع تصميم هذا الجامع ، والابتكارات المعمارية والزخرفية التى وصـل اليها هو ومن جاءوا بعده تقرر دون أدنى شك أن العرب كانوا أعظم مهندسى الدنيا حتى مطلع العصر الحديث .. وأنصع دليل على عبقرية هذا الابتكار أنه لم يتكرر ، فمن المعروف أن المعماريين ينقل بعضهم عن بعض ، اذا ابتكر واحد منهم شيئا فى الشرق نقله الآخرون عنه فى سلسلة طويلة حتى يصل الى أقصى الغرب ، الا أن هذا الابتكار فريد فى نوعه على طول التاريخ ، فريد وحيد كالجامع نفســه .. والهدف الذى قصد اليــه

---

(١) رحلة الاندلس صفحة ٧٢/٧٣ .

هذا المعمارى المبدع بهذا الابتكار يدعو الى الاعجاب .. انه هدف جمالى صرف .. ولم يجرؤ مهندس جامع آخر على تطبيق هذا الابتكار لأن أعمال العباقرة لا تتكرر ولا تقلد .

وبعد أن أمضى عبد الرحمن الناصر أكثر من ربع قرن فى اخماد الثورات ، وهدأ الزلازل والاضطرابات وجمع الشمل المبدد ، وساد الأمن ، وعم الرخاء ، كان يستطيع أن ينشىء جامعا جديدا ولكنه آثر استكمال الجامع الذى أنشأه جده العظيم عبد الرحمن الداخل ، ويعلل ذلك الدكتور حسين مؤنس قائلا « (١) كان عبد الرحمن الناصر قديرا على أن ينشىء جامعا جديدا رائعا ينسب اليه ، ولكن سلائل بنى مروان فى الأندلس كان فيهم حرص على التقاليد ، واستمساك بمناهج أجيالهم الأولى ، كأنهم كانوا يجرون فى سياستهم على الحديث النبوى الشريف الذى يقول « لا يصلح هذا الأمر الا بما صلح به أوله وكانوا يعرفون أيضا أن وحدة الدولة والوطن لاتقوم الا على أساس من وحدة التاريخ ، ومهما بلغ من رواء ملك عبد الرحمن فهو بناء على ما أسس جده عبد الرحمن الداخل ، وما دام هذا قد أنشأ ذلك المسجد ، وجعله محراب جماعة الاسلام فى الاندلس ، فليظل كذلك لا تخلع عنه هذه الصفة ، ولا ينقل عنه هذا الشرف الى غيره وليوسع هذا المسجد وليضف عليه من جمال الفن وجلال الخلافة ما شاء ابداع الفن ونمو الحضارة وما قدر جاه الخليفة » وفى تقديرى ان الدكتور حسين مؤنس قد أجاد التعليل وأصاب شاكلة الصواب ، وكان يحيط بجامع قرطبة سور يتراوح ارتفاعه بين مترين وثلاثة أمتار ، وكان يمتد فى

---

(١) رحلة الاندلس صفحة ٩٢

شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب وقد توجته شرفات عالية ، وكان المصلون يدخلون الجامع من واحد وعشرين بابا تزان جميعها بالنحاس الأصفر المخرم ، وكانت النوافذ والكوى الموصدة التى تشبه المحاريب القائمة الى جنباتها وبغلات الحائط — الدعامات الخارجية — التى تشبه الأبراج تزين واجهة الجامع ، وخصص عدد قليل من الأبواب للنساء فهن يلجأن الى مقاصير رفعت لهن .

ولم تله مهام الحرب ومشكلات السياسة الناصر عن القيام بأعمال الانشاء والتعمير ، وقد اغتنم فرصة الاستقرار النسبى فى سنة ٣٢٥ هجرية وشرع فى بناء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملكية ، ويقول ابن خلدون فى تاريخه يذكر بناء الزهراء « (١) لما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمبانى ، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا فى ذلك ، وبنوا قصورهم على أكمل الاتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو الى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسماه « دار الروضة » وجلب الماء الى قصورهم من الجبل ، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ فى بناء المتنزهات ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها لنزله وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش

---

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١١٢ .

فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيــــور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى والزينة وغير ذلك من المهن ، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس »

ويعزو المؤرخون أسباب انشاء مدينة الزهراء الى قصة تشبه الأساطير التى كثيرا ماتروى عن بناء المدن والمنشـــآت العظيمة ، فهم يذكرون أن جارية من جوارى الناصر ماتت عن أموال كثيرة أوصت بها لافتداء أسرى المســـلمين ببلاد الافرنج ، ولكن الناصر لم يجد أسيرا ليفتدى ، فطلبت منــه جاريته الزهراء وكانت اثيرة عنده أن يبتنى بالمال مدينة تحمل اسمها ، فاستجاب لرغبتها ، والأقرب الى المعقول والأشـــبه بأخلاق الناصر أن الرغبة فى انشاء مدينة ، يتخذها حاضرة لخلافته ورمزا لعهـــده كما فعل أبو جعفر المنصور فى انشـــاء بغداد وكما فعل عبيد الله المهدى فى انشاء المهدية ـ أقول ان مثـــل هـــذه الرغبة كانت تختلج بنفسه جريا على طريقة أسلافه من الخلفاء الأمويين سواء فى الشرق فى ســـوريا أو الغرب بالأندلس ، ويبدو أن النـــاصر كان له شغف خاص بالعمارة والبناء ، وما زالت المبانى الضخمة والمنشآت الفخمة حتى عصرنا الحاضر مظهرا من مظـــاهر المجد المؤثل والمكانة المرموقة ، وقد نسبت الى الناصر أبيات من الشعر تعبر عن هذه النزعة وتنم على هذا الاحساس ، وهى :

همـــم الملـــوك اذا أرادوا ذكـــــرها
من بعـــدهم فبالســـن البنيان
أو ما ترى الهـــرمين قد بقيا وكم
ملك محـــاه حـــوادث الأزمان

ان البنـــاء اذا تعـــــاظم شــــــأنه ٠
أضـــحى يدل على عظيم الشـــــان

وفضـــلا على ذلك فقد كانت الحـاجة ماسة الى انشاء مثل هذه المدينة ، فقد وجد الناصر ان قصر الامارة فى قرطبة لم يعد يتسع لما تقتضيه المحافظة على جلال الخـلافة من فخامة المظهر التى تلائم مكانتها الشماء فى النفوس ، وكثر وفود الملوك والأمراء والسفراء على بلاطه ، وذاع شأنه فى أنحاء المشرق والمغرب ، وكانت هذه الوفود القادمة تقـابل بالحفاوة والتكريم ، وتنظم لها المواكب التى تخترق شوارع قرطبة فتضيق حركة المرور كما يحدث فى العواصم الكبرى عندما يكثر مرور أمثال هذه المواكب ، ويشغل الناس عن الفراغ لأعمالهم ، لذلك اتجه تفكير الناصر الى انشاء قصر ملكى تتسع رحابه للوفود القادمة كما فكر فيما بعد لويس الرابع عشر فى انشاء قصر فرساى خارج باريس ، وكان سكان قرطبة فى عهد الناصر قد ناهزوا نصف المليون فابتناء مثـل هذه المدينة يقلل من اشتداد ضغط تكاثر الســكان ، ويوجد مجالات أوسع لمختلف الأعمال .

ويقول ابن عذارى فى البيان المغرب (١) « ابتدىء بنيانها من أول سنة ٣٢٥ هـ وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط فى الأسوس وجلب اليها الرخام من قرطاجنة افريقية ومن تونس ، وكان الأمناء الذين جلبوه عبد الله بن يونس وحسن القرطبى وعلى ابن جعفر الاسكندرانى ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ٠٠ وعلى كل سارية بثمانية دنانير سـجلماسية ،

---

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٣٤٥ .

وكان فيها من السوارى أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية وثلاث عشرة سارية ، والمجلوبة منها من افريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، وسائر ذلك من رخام الأندلس ، وأما الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتماثيل فلا قيمة له ، جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان الى مكان حتى وصل فى البحر ، ووضعه الناصر فى بيت المنـام ، فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، وكان عليه اثنـا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعا بالدر النفيس الغالى مما صنعه بدار الصنعة بقصر قرطبة ، وكان المتولى لهذا البنيان المذكـور ابنه الحكم ، لم يتكل الناصر فيه على امين غيره ، وكان يخبز فى أيامه كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانى مائة خبزة ، وهذا من أعظم الأشياء ، الى ما فوق ذلك وكان الناصر قـد قسم الجباية على ثلاثة أثلاث ، ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسـة آلاف وأربعمـائة ألف وثمـانين ألف دينـار ، ومن المستخلص والأسـواق سبعمائة ألف دينـار وخمسة وستين ألف دينار » .

وابتنى الناصر فى المدينة الجديدة جامعا كان يعمل فيه حين شرع فى بنائه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة — كما يروى ابن الفرضى(١) وغيره — منها ثلاثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه واتقانه فى مدة من ثمانية وأربعين يوما ، وجاء فى غـاية الاتقان ، من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة الى الجوف — حاشا المقصورة — ثلاثون ذراعا ، وعرض البهو

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٠٠ .

الأوسط من أبهائه من الشرق الى الغرب ثلاث عشرة ذراعا ، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعا ، وطول صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ثلاث وأربعون ذراعا، وعرضه من الشرق الى الغرب احدى وأربعون ذراعا ، وجميعه مفروش بالرخام الخمرى ، وفى وسطه فوارة يجرى فيها الماء ، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة الى الجوف ـ سوى المحراب ـ سبع وتسعون ذراعا ، وعرضه من الشرق الى الغرب تسع وخمسون ذراعا ، وطول صومعته فى الهواء أربعون ذراعا وعرضها عشر أذرع فى مثلها .

وأمر الناصر باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد ، فصنع فى نهاية من الحسن ، ووضع فى مكان منه ، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة ، وكان وضع هذا المنبر فى مكانه من هذا المسجد عند اكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة ٣٢٩ .

ويقول ابن الفرضى(١) «أنه فى صدر هذه السنة ـ ٣٢٩ هـ ـ أكمل الناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها وأجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربى قرطبة ، فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، مطلى بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد ، يجوز هذا الماء الى عجز الأسد فيمجه فى تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٠٠ .

هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التى يترقى الماء منها ويتصوب من اعاليها ، وكانت مدة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل الى ان وصلت ــ أعنى القناة ــ الى هذه البركة أربعة عشر شهرا ، وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة ، وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته ، ووصل المهندسين والقوام بالعمل بصلات حسنة جليلة جزيلة(١) »

وقد استمر العمل فى مدينة الزهراء من سنة ٣٢٥ الى آخر دولة الناصر وابنه الحكم وذلك نحو من أربعين سنة ، ولما بنى الناصر قصر الزهراء أجمع الناس على أنه لم يبن مثله فى الاسلام البتة ، وما دخل اليه قط أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وعالم الا وكلهم قطع أنه لم ير له شبها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى انه كان أعجب ما يؤمله القاطع الى الأندلس فى تلك العصور النظر اليه ، والتحدث عنه ، وقيل (٢) انه لو لم يكن فيه الا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، مابين مرمرمسنون ، وذهب مصون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٠٠/١٠١ .
(٢) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٠٢ .

عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدى الأوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على ابداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة كيما يرى الغافلون عنه من عباده مثالا لما اعده لأهل السعادة فى دار المقامة التى لايتسلط عليها الفناء، ولا تحتاج الى الرم » .

وفى بنـاية الزهراء بدأ النـاصر باقامة قصر عظيم للاستقبال لتقام فيه الحفلات حين حضور السفراء والرسل والملوك الى بلاطه ، وقد أقامه على سفح جبل العروس بحيث يشرف على السهل الفسيح المنبسط أمامه (١) ، وكان بالقصر قاعة كبيرة بابها الرئيسى من ناحيـة الوادى ، وعن يمينها ويسارها عقود تشبه عقود الجامع الا أنها منفردة الأقواس ، وفى الصـدر ثلاثة عقود كبرى ، الأوسـط منها أوسـع من الباقين ، وتحت هذا العقد الأوسط كان يوضع عرش الناصر وعن يمينه ويساره مقاعد الأمراء والوزراء ، وتمتد المقاعد الى الباب ليجلس عليها كبار رجال الدولة ، وخلف العقود الجانبيـة ممران كان يصطف فيهما جنـد الحـرس ، فيمر الضيوف بين صفوف الجنـد من بعيد ثم يدخلون القـاعة ليحيوا الخليفة وهم بالباب ، ويتقدمون فيحيون مرة أخرى ، حتى اذا كانوا أمام الخليفة قرأوا عليه تحية ثالثة ، ثم يأمر بجلوسهم حيث يشاء ، وينظرون الى الوالى والجند والحرس مصطفين فيه صفوفا ، مشاة وفرسانا ، ثيابهم بيضاء وعلى مناكبهم أقبية بيض تتـدلى خلف ظهـورهم ، تزين رءوسهم العمائم ، وفى أيديهم السيوف ، وبقية القصر قاعات للخليفة

(١) رحلة الاندلس ، صفحة ١١٣/١١٤ .

والأمراء ورجال الدولة ، وانشئت الى جوار هذا القصر قصور أخرى للأمراء والوزراء والموظفين .. وعلى درجة بعد هـذه على السـفح أقيمت مسـاكن الجند والحـرس ، وأعد ميدان عظيم للعرض العسكرى ، يشهده الخليفة من قصره ، ومخازن للسلاح والعتاد ودور الخيل .. وكانت المدينـة تقوم على ثلاث درجات ، أعلاها قصر الخليفة وقصور الأمراء، والدرجة الثانية كانت حدائق يقوم فيها جامع الزهـراء ، والثالثة للقواد والجند وأهل البلد » .

ويقـول الشريف الادريسى فى حديثه عن الزهراء(١) « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، وسـطح الثلث الأعلى يوازى الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصورا يقصر الوصف على صفاتها، والجزء الأوسط لبساتين وروضات ، والجـزء الثالث الديار والجـامع » .

ويروى المؤرخون أن جارية الناصر الزهراء التى سميت المدينة باسمها حينما نزلت بها بعد اتمام بنائها وقعدت فى مجلسها ونظرت الى بياض المدينة وحسنها فى حجر الجبل الأسود الذى اقيمت عليه قالت له « سيدى ! ألا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى ؟

فهم الناصر بالعمل على ارضاء خطيبته الأثيرة وأصـدر أمرا بازالة الجبل ، ولكن بعض جلسائه قدر صعوبة الاقدام على مثل هذا العمل التى تقرب من الاستحالة ، وكان يعرف

---

(١) الجزء الثالث من تاريخ الاسلام السياسى صفحة ٦٠٠/٦٠١ .

سعة صدر الخليفة النـــاصر ودماثة خلقه فلم يبخل عليه بالنصيحة وصارحه قائلا :

« أعيذ امير المؤمنين أن يخطر له مايشين العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما زالوه حفرا ولا قطعا ، ولا يزيله الا من خلقه » .

وأدرك الناصر صدق هذه النصيحة ورجحان هـذا الرأى فكبح جماح عاطفته ، وعدل عن رأيه ، وهداه تفكيره السليم الى أن يأمر بقطع شجر الجبل وأن تغرس فيه أشجار التين واللوز ، ولم يكن أحسن منها منظرا ولا سيما حينما تتفتح الأشجار وتزدهر الأزهار .

ولم تنس عظمة الزهراء ومسجدها عبد الرحمن الناصر جامع قرطبة الـكبير الذى اشـترك فى رفع بنيانه ، وتوطيد جدرانه ، واعلاء شأن اجداده فكان يؤدى فيه صلاة الجمعة والأعياد ويروى (١) أن الناصر اراد الفصد ، فقعد فى البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب المبضع ، وجس عضد الناصر ، فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور ، فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد :

أيها الفاصـــد رفقا	بأمـــير المؤمنينـا
انمـا تفصـــد عرقا	فيه محيا العـالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعـــد المرة ، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسر به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك ، وعلم الزرزور ، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة ، أم ولده ولى عهده الحكم المستنصر

---

(١) الجزء الثانى من « ازهار الرياض » صفحة ٢٦٥ .

بالله ، صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ماينيف على ثلاثين ألف دينار .

وقال بعض المؤرخين(١) ان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى ، وسبعمائة وخمسين فتى ، ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا أنواع الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة ، وفى رواية أخرى أن عدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون وعدد النساء بقصر الزهراء مثل ما ذكر اولا .

وكلف الخليفة الناصر بعمارة الأرض ، واقامة المعالم ، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك ، وعزة السلطان ، واستفراغه وسعه فى تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها عرضه لنقد من ناحية القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وكان المعروف عن منذر شدة الصلابة فى أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، وحرصه على القيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده ، لا يهاب فى ذلك الامير الأعظم فمن دونه ، وكان الناصر قد انهمك فى الاهتمام بمبانيه ومنشآته حتى استغرق ذلك الاهتمام معظم أوقاته فتمطل عن شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ثلاث جمع متوالية ، فأراد منذر بن سعيد أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة فأدخل فى خطبته فصلا مبتدئا بقوله تعالى :

(أتبنُونَ بِكُلِّ ريع آيةً تَعبَثُون ، وَتتَّخذون مَصانِعَ لعَلَكُم تَخلُدُون ، وَإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارين ،

(١) الجزء الثانى من « ازهار الرياض » صفحة ٢٦٨ .

فاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون ، واتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُون ،
أمدكم بأنعامٍ وَبَنين ؛ وَجَنَّات وَعُيُون ؛ إِنِّى أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَاب يَوْمٍ عَظِيم) ولاتقولوا (سَوَاءٌ ؛ عَلَينا
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِن الْوَاعِظِين) (قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا
قَليل ؛ والآخِرَةُ خَيْرٌ لمن اتَّقى) وهى دار القرار ؛
ومكان الجزاء

ووصل ذلك بكلام جذل ، وقول فصل ، ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته ، والاسراف فى الانفاق عليه ، فجرى طلقا ، وانتزع فيه قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير) الآية وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير من فجأته، والدعاء الى الزهد فى هذه الدار الفانية ، والحض على اعتزالها ، والرفض لها ، والندب الى الأعراض عنها ، والاقصار عن طلب اللذات ، ونهى النفس عن اتباع هواها، فأسهب فى ذلك كله ، وأضاف اليه من آى القرآن ما يطابقه وجلب من الأحاديث والأثر ما يشاكله ، حتى أدكر من حضره من الناس .. وخضعوا ورقوا .. واعترفوا وبكوا ، وضجوا ودعوا ، وأعلنوا التضرع الى الله والتوبة ، والابتهال والمغفرة ، واخذ الخليفة عبد الرحمن من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود ، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، الا انه وجد على منذر بن سعيد لغلظ ما

قرعه به ، فشكا ذلك الى ولده الحكم بعد انصرافه وقال له « والله لقد تعمدني منذر بخطبته ، وما عنى بها غيري ، فأسرف على ، وأفرط في تقريعي ، ولم يحسن السياسة في وعظي ، فزعزع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعني » ، واستشاط غيظا عليه ، فأقسم الا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويجانب الصلاة بالزهراء .

فقال له الحكم « وما الذي يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك والاستبدال منه اذا كرهته ؟ » .

لم يسترح الناصر لهذا الرد ، وزجر الحكم وانتهره قائلا أن « مثل منذر بن سعيد في خيره وفضله وعلمه لا أم لك - يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون ، واني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه قد أحرجني فأقسمت ، ولوددت اني أجد سبيلا الى كفارة يميني بملكي ، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى » .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي اجترأ فيها منذر ابن سعيد على التصدي للناصر في ترامي نفوذه وضخامة سلطانه بالوعظ الصادع ليكف من اسرافه في الاقبال على انشاء القصور ، والمبالغة في زخرفتها وتجميلها .

فقد روى (١) القاضي النباهي أنه كان قد اتخذ لسطح القبيبة التي كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه

---

(١) الجزء الثاني من أزهار الرياض صفحة ٢٨٠/٢٨١ .

بقصر الزهراء قراميد مغشاة ذهبا وفضة ، أنفق عليها مالا جسيما ، وقرمد سقفها به ، وجعل سقفها صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة ، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها ، وجلس فيها اثر تمامها يوما لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة ، مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك « هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ » .

فقالوا « لا والله يا أمير المؤمنين ، وانك لأوحد فى شأنك كله ، وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولا انتهى الينا خبره » .

فأبهجه قولهم وسره،

فبينما هو كذلك اذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد واجما ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذى قاله لوزرائه وقرابته من ذكر السقف المذهب ، واقتداره على ابداعه ، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته .

وقال له « والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين » .

فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له « انظر ما تقول ، وكيف أنزلتنى منزلتهم ؟ »

فقال له منذر « نعم أليس الله تعالى يقول « ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون »

فوجم الخليفة ، واطرق مليا ، ودموعه تتساقط ، خشوعا لله سبحانه ، ثم أقبل على منذر وقال له « جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرا ، وعن الدين والمسلمين أجمل جزائه ، وكثر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو الحق » .

وقام عن مجلسه ذاك وهو يستغفر الله تعالى ، ويأمر بنقض سقف القبيبة ، وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها.

وحضر منذر مع الناصر يوما فى الزهراء ، فقام الرئيس أبو عثمان بن ادريس فانشد الناصر قصيدة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن
مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا

فيا لجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج ، واطرق منذر بن سعيد ساعة، ثم قام منشدا :

يا بانى الزهراء مستغرقا
أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر « اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع ، يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى » .

فقال منذر « اللهم اشهد أنى قد بثثت ما عنـــدى ولم آل نصـحا »

ويعلق المقرى على ذلك فى النفح بقوله (١) « ولقد صدق القاضى منذر رحمه الله تعالى فيما قال ، فانها ذبلت بعـــد ذلك فى الفتنة ، وقلب ما كان فيها من منحة محنة »

ويروى ان بعض الأولياء فى عصر المنصور بن أبى عامر مر بالزاهرة التى بناها المنصور كما بنى الناصر الزهراء ، ونظر الى مصانعها السامية الفائقة ، ومبانيها العالية الرائقة فقال « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك فى كل دار» فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح الا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها ، وعـم الخراب سـائرها ، فلم تبق دار فى الأندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وتحقق دعاء ذلك الرجل ، وحكى أن بعض ما نهب منها بيع ببغــداد وغيرها من البلاد المشرقية ، وواضح من ذلك أن شـــدة ولع الناصر باشادة المبانى الفخمة، والاكثار من التأنق فى زخرفتها وتجميلها ، والانفاق عليها ، كان لا ينظر اليه رجال الدين نظرة ارتياح وقبول ، وقد عبر منذر بن سعيد بصراحته المعهـــودة عن وجهة نظرهم ، وقد تتعارض فى بعض الأمور وجهة نظر أصحاب الأمزجة الفنية ووجهة نظر المطبوعين على التشـــدد فى الدين ، وفى رأى كل منهم جانب من الحق وحظ من الصـــدق .

وقد أشار الى الزهراء الوزير الشاعر ابن زيدون (٢) بقوله فى قصيدة طويلة :

---

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١١١ .

(٢) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٥٥/١٥٦ .

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح
تقضي تنائيها مدامعه نزحا

مقاصير ملك أشرفت جنباتها
فخلنا العشايا الجون اثناءها صبحا

يمثل قرطيها لى الوهم جهرة
فقبتها فالكواكب الرحب فالسطحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه
اذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

هناك الجمام الزرق تندى حفافها
ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا

تعوضت من شدو القيان خلالها
صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا

ويروى المقرى(١) عن محيى الدين بن عربى فى المسامرات أنه قال « قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش ، وبناؤها عجيب فى بلاد الأندلس ، وهى قريبة من قرطبة ، أبياتا تذكر العقل وتنبه الغافل ، وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع
فيصمت أحيانا وحينا يرجع

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ٦٤ .

ينـــوح عليها الطـــير من كل جـــــانب

وما ان بها من ســــاكن وهى بلقـــع

فخاطبت منهـــا طائــــرآ متغــــردا

له شـــجن فى القلب وهـــــو مروع

فقلت : على ماذا تنـــــوح وتشـــتكى ؟

فقــــال : على دهر مضى ليس يرجـــع

عبد الرحمن الناصر
بين وزرائه وقضاته وقواده

كانت الوزارة فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه الحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة لذلك، وكانت الكتابة على ضربين اعلاهما كاتب الرسائل ، وله مكانه عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب .

ويقول المقرى ان أهل الاندلس كانوا كثيرى النقد لصاحب هذه السمة ، لايكادون يغفلون عن عثراته فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الالسن فى المحافل ، والطعن عليه ، وعلى صاحبه ، والكاتب الآخر كاتب الزمام وكان أغلبهم بالأندلس وبر العدوة من النصارى واليهود .

وصاحب الأشغال الخراجية فى الاندلس أعظم من الوزير وأكثر أتباعا ، وأجدى منفعة ، وكانت خطة القضاء بالأندلس أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين ، وكون السلطة لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى ، وكان تقدير الأمراء الأمويين للقضاة من سمات الحكم الأموى المشرفة بالأندلس .

وكانت هناك خطة الشرطة ، ويعرف صاحبها بالأندلس في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، ولكن ذلك كان قليلا ، ولا يكون الا في حضرة السلطان الاعظم وهو الذى يحد على الزنى وشرب الخمر وكثير من الأمور الشرعية راجع اليه ، وقد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى ، وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

وخطة الاحتساب كانت عندهم موضوعة فى أهل العلم والفطن وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا فى الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد أعوانه لأن الخبز عندهم كان معلوم الوزن ومعروف الثمن وكذلك اللحم كانت توضع عليه ورقة بسعره فلا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة والذى يخالف ذلك تحل به العقوبة الشديدة الرادعة .

وقد اشتهر وبرز فى عهد الناصر طائفة من الوزراء والقضاة والقواد ، وكان فى طليعة هؤلاء الوزراء موسى بن محمد بن حدير وقد استحجبه الناصر واستوزر عبد الملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد وقد أهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الاصناف ، وقد عنى بالتحدث عنها ابن حيان المؤرخ الاندلسى وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين والواقع أن هذه الهدية تدل على ضخامة الدولة الأموية كما قال ابن خلدون وكان تقديم هذه الهدية للناصر فى سنة ٣٢٧ هـ وقد اشتهر ذكرها ، واتفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الاندلس بمثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا ، وأقروا أن نفسا لم تسمح باخراج مثلها ضربة عن

يدها ، وقد أرفق ابن شهيد رسالة يعترف فيها للناصر بالنعمة والشكر عليها ، وصادفت هذه الرسالة استحسان الناس فكتبوها ، وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأضعف له مرتب الوزارة وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وسماه ذا الوزارتين ويقول المقرى (١) انه أول من تسمى بذلك فى الأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه فى البيت وتقديم اسمه فى دفتر الارتزاق أول التسمية فعظم مقداره فى الدولة .

وتختلف الروايات فيما اشتملت عليه هذه الهدية العظيمة ، وفى رواية ابن خلدون انها حوت خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر ، ومصارفة خمسة وأربعين ألف دينار ، ومن سبائك الفضة مائتى بدرة واثنى عشر رطلا من العود الهندى يختم عليه كالشمع ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ومائة رطل من العود شبه المنتقى ومائة أوقية من المسك الزكى المفضل فى جنسه وخمسمائة أوقية من العنبر الاشهب الباقى على خلقته من غير صناعة ، ومنها قطعة عجين ململمة الشكل وزن مائة أوقية ، ومن اللباس ثلاثين شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع ، وعشرة أفرية من غالى جلود الفنك الخراسانية ، وستة من السرادقات العراقية وثمانية وأربعين من الملاحف البغدادية لرتبة الخيل ، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال ، ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة ، وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها ، ومن

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٣٣٢ .

السـلاح والعدة ثمانمائة من التجافيف المزينة لأيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية ومائة ألف سهم من النبال البارعة الصنعة ، وخمسة عشر فرسا من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت، ومائة فرس من الخيل التى تصلح للركوب فى التصرف والغزوات ، وعشرين من بغال الركاب مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز جعفرى عراقى ، ومن الرقيق أربعين وصيفا وعشرين جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم ، ومن أصناف هـذه الهدية قرية تغل آلافا من أمداد الزرع ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه فى عام واحد ثمانون ألف دينار وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصيله وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار ٠

ويضيف ابن الفرضى أشـياء أخرى على ما ذكره ابن خلدون ٠ ويقول المقرى (١) : « ان ابن الفرضى أعرف لأنه استند الى كتاب المهدى ، وصاحب البيت أدرى ٠

وفى آخر كتاب ابن شـهيد « لما علمت تطلع مولاى — أيده الله تعالى — الى قرية كذا بالقنبانية وترداده لذكرهـا لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة فى ابتياعها بأجوازهـا واكتتبت الوثيقة فيـها باسمه وضمها الى ضياعه وكذلك صنعت فى قرية شيرة فى منطقة جيان عندما اتصل بى من وصـفه لها وتطلعه اليهـا ، فمـا زلت أتصـدى لمسرته بها حتى ابتعتها الآن بأجوازها وجميع منازلها وربوعها ٠٠ ولما علمت نافذ عزمه فى البنيان وكلفه به ، وفكرت فى اعداد الامـاكن التى تتطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره فى بنيانها — مد الله تعالى فى عمره وأوفى به على أقصى أمله — علمت ان اسمه

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٣٣٥ ٠

وقوامه الصخر والاستكثار منه ، فأثارت لى همتى ونصيحتى حكمة حيلة أحكمها سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم عليه حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدى عبـدك ابن عاصم فى عشرين عاما ، وينتهى تحصيل النفقة فيه الى نحو الثمانين ألفا أعجل شأنه فى عام ، سوى التوفير العظيم الذى يبديه العيان ان شاء الله تعالى ، وكذلك ما ثاب الى فى أمر الخشب لهذه المنيـــة المكرمة ، فان ابن خليـــــل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج اليــه ثلاثمائة ألف عــود ونيف على عشرين ألف عــود ، على أنه لا يدخل منه فى السنة الا نحو الألفى عود ، ففتح له سعدك رأيا أقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجليبة لوقتها ، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفـــا الى الستين ألفا » .

وأحمد بن عبد الملك بن شهيد مقدم هذه الهدية العظيمة قديم الصلة بالأمويين ، ويقول (١) الرازى المؤرخ الاندلسى ان جد أسرته مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وشهيد بن عيسى هو الداخل الى الاندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ،وتصرف بنوه للخلفاء فى الخطط السنية من الامارة والحجابة والوزارة والكتابة الى انقراض الدولة الأموية بالأندلس .

وتصرف أحمد هذا للناصر فىولاية الكور والوزارة وقود الصوائف ، وغزا البشكنس وكان من أهل الأدب البارعين ، وهو الجـد الأدنى للشاعر الأندلسى أحمد بن شهيد صاحب رسالة التوابع والزوابع .

(١) الجزء الاول من الحلة السيراء صفحة ٢٣٨ .

ويحدثنا الفتح بن خاقان فى المطمح قائلا (١) « أحمد ابن عبد الملك بن عمر بن شهيد مفخر الامامة ، وزهر تلك الكمامة ، وصاحب الناصر عبد الرحمن ، وحامل الوزارتين على سموهما فى ذلك الزمان ، استقل بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها والتفات مقلها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع كثرة النظراء ، وكانت امارة عبد الرحمن أسعد امارة ، بعد عنها كل نفس بالسوء أمارة فلم يطرقها صرف ، ولم يرمقها بطرف ، ففرع الناس فيها هضاب الأمانى ورباها ، ورتعت ظباؤها ، فى ظلال ظباها ، وهو أسد على برائنه رابض، وبطل أبدا على قائم سيفه قابض، يروع الروم طيفه ، ويجوس خلال تلك الديار خوفه ، ويروى من نجيعهم كل آونة سيفه ، وابن شهيد ينتج الآراء ويلقحها وينقد تلك الأنحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائه ، متجملة بسنائه ، وكرمه منتشر على الآمال ويكثر الأولياء بذلك الاجمال وكان له أدب تزخر لججه ، وتبهر حججه ، وشعر رقيق لا ينقد ويكاد من اللطافة يعقد ، فمن ذلك قوله :

ترى البدر منها طالعا فكأنما
يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب

بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى
ومفعمة الخلخال مفعمة القلب

من اللائى لم يرحلن فوق رواحل
ولا سرن يوما فى ركاب ولا ركب

ولا أبرزتهن المدام لنشوة
فتشدو كما يشدو القيان على الشرب

---

(١) المطمح صفحة ٩/١٠ والجزء الأول من النفح صفحة ٣٥٦/٣٥٧ .

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور ـ متولى الأمر معه ومشاركه فى التدبير اذا حضر مجتمعه ـ منافسة ، لم تنفصل لهما بها مداخلة ولا ملابسة ، وكلاهما يتربص بصاحبه دائرة السوء ، ويغص به غصص الأفق بالنوء ، فاجتاز يوما على ربضه ، ومال الى زيارته ولم تكن من غرضه ، فلما استأمر عليه ، تأخر خروج ، الاذن اليه ، فثنى عنانه حنقا من حجابه وضجرا من حجابه ، وكتب آليه معرضا ، وكان يلقب بالحمار :

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا
اليك ولا قلب اليك مشوق

ولكننا زرنا بفضل حلومنا
فكيف تلاقى برنا بعقوق

فراجعه ابن جهور يغض منه بقوله :

حجبناك لما زرتنا غير تائق
بقلب عدو فى ثياب صديق

وما كان بيطار الشآم بموضع
يباشر فيه برنا بخليق

وكان يشاع أن جد أحمد بن شهيد وضاحا كان يعمل بيطارا فى الشام قبل أن يخدم معاوية بن مروان بن الحكم ويدخل فى ولائه .

ومن وزراء الناصر عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب ابن عبد الرءوف وهو من بيت من بيوت الأندلس الكبيرة وكان قومه من الظاهرين بين الشاميين من موالى الأمويين، وقد تصرف عبد الوهاب للناصر فى الولايات والأمانات ثم استوزره وكان بصيرا بالعربية ، طالع كتاب سيبويه ونظر فيه ، وكان لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائل من عويص النحو

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

عبد الرحمن سنة ٣٤٧ هـ [illegible] الشيخ محمد بن إسماعيل
[illegible] [illegible] صاحب علي بن أحمد [illegible] ، إفريقية صاحب
الناصر لقيادة الأسطول ، [illegible] ولاه الناصر [illegible] في سنة
٣٤٣ هـ ، [illegible] ولاه الناصر [illegible] [illegible] [illegible] الله [illegible] [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] في (1) [illegible] [illegible]
[illegible] :

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

---

(1) [illegible] الأول من الحلة السيراء صفحة ٣٥٦/٣٥٧ .

عبد الرحمن سنة ٣٤٧ هـ لمحاربة الشيعى معد بن اسماعيل صاحب افريقية ، وكان أحمد بن يعلى صاحب الشرطة فاختاره الناصر لقيادة الأسطول ، وقد ولاه الناصر طليطلة فى سنة ٣٤٣ هـ ، وحين ولاه الناصر طليطلة ولى ابنه عبيد الله ما كان بيد أبيه من الاشراف على ناحية بطليوس وأعمالها ، ورفع رزقه الى أرزاق الوزراء مع مقامه على خطته فى الشرطة العليا وسمى قائد الأعنة وأغنى عبيد الله فى قتال الروم غناء أبيه ، وكان أديبا شاعرا ، وهو القائل (١) فى أوليائه الأمويين :

ترى الأرض فينا لا يقر قرارها
اذا لم يسسها من أمية سائس

ذوو الهضبات الشم والأبحر التى
تفيض ملاء والملوك الأشاوس

هم ذهبوا بالمكرمات ولم يزل
لهم جبل العز القديم القدامس

وهم نزلوا من خندف حيث تلتقى
رءوس قصى فى الذرى والمغاطس

وهم غمسوا فى جفنة الطيب قبل أن
يرى أحد من قومهم وهو غامس

وهم أوقدوا حرب الفجار حفيظة
فقامت بها أعياصهم والعنابس

بها ليل ما ان يستضيف اليهم
بما شيدوا الا الخصال النفائس

(١) الجزء الاول من الحلة السيراء صفحة ٢٥٦/٢٥٧ .

اذا سوجلوا لم يحتملهم مساجل
وان قويسوا لم يستطعهم مقايس

تطيف بهم ساحات مكة في العلا
وتكنفهم منها الهضاب الأمالس

ومن قواده أحمد بن محمد بن أبي عبدة الوزير القائد ، وهو صاحب غزوة الصائفة في سنة ٣٠٥ هـ وقد أجلب فيها مسيحيو الشمال بخيلهم ورجلهم على الجيش الاسلامى فتداعى بعض الذين كان في قلوبهم مرض من أهل الثغور الى الهزيمة، وجروها على الجيش فانهزم كثير منهم ، وأبى القائد الهمام أن يترك ميدان القتال وثبت وأظهر الصبر ودافع مدافعة الأبطال حتى استشهد ٠

ومن قواده في البر والبحر أحمد بن محمد بن الياس وكان أحد القائدين اللذين جازا مرسى الجزيرة الخضراء واحتلا العدوة ، وحاصرا ابن أبي العيش في سنة ٣١٩ هـ وفي سنة ٣٢٩ هـ ، كان من القواد الذين شاركوا في محاربة راميرو ٠

ومن وزراء الناصر البارزين جهور بن أبي عبدة وأحمد ابن فطيس والكاتب عبد الرحمن الزجالى، وكان ينظر في تنفيذ كل ما يخرجه الناصر من العهود والتوقيعات وينفذ به الأمر ، وتولى محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وحوائجهم وتنجيز التوقيعات لهم ويقول ابن عذارى : آنه بذلك «(١) اعتدل ميزان الخدمة وسهلت مطالب الرعية » ٠

ومنهم غالب الناصرى وهو الذى قاد في سنة ٣٤٦ هـ

(١) الجزء الثانى من ابن عذارى صفحة ٣٢٩ ٠

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] أحمد بن محمد بن أبي عبيدة [illegible] [illegible] وهو صاحب [illegible] الصحيفة في سنة ٦٠٥ هـ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] (١) [illegible] [illegible] .

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

---

(١) [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

[illegible]

فقال نبيه « نعم » .

فقال الانسان « هل الذي خلقك هو الله ؟ » .

[illegible]

[illegible]

[illegible] (1) [illegible]

---

(1) الجزء الأول من تاج العروس [illegible] ٢٥٧/٢٥٧ .

فأرسل الناصر الى القاضى منذر وقال له « أأنت أمرت بنقض دار أخى نجدة ؟

فقال منذر « نعم » .

فقال الناصر « وما الذى دعاك الى هذا ؟ » .

فقال منذر « أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ومقوموك لم يقوموها الا بكذا وبذلك تعلق وهمك ، وقد نض فى أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعة والحمام فضلا ونظر الله تعالى للأيتام » .

وكان عبد الرحمن يقدر نزاهة منذر ويعرف أنه لا يخاف فى الله لومة لائم ، فكبح جماح نفسه ، وصبر على هذه المخالفة لرغبته وقال « نحن أولى من انقاد الى الحق ، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا » .

وقد روى المقرى (١) أن الناصر لما أعذر لأولاد ابنه أبى مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف عنه أحد من أهل مملكته ، وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن بينهم من العلماء والعدول ووجوه الناس ، فتخلف من بينهم المشاور أبو ابراهيم ، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته ، ولحظ ذلك عبد الرحمن فسأل عنه لأنه كان من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ، وكان المذهب المالكى هو المذهب السائد فى الأندلس ، ووجد الناصر بسبب ذلك على أبى ابراهيم ، وأمر ابنه وولى عهده الحكم بالكتابة

---

(١) الجزء الأول من نفح الطيب صفحة ٣٥٢/٣٥٣ .

اليه والتفنيد له ، فكتب اليه الحكم « رقعة يقول فيها «بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى ـ أبقاه الله ـ الأولياء الذين يستعد بهم ، وجدك متقدما فى الولاية ، متأخرا عن الصلة ، على أنه قد أنذرك ـ أبقاه الله ـ خصوصا للمشاركة فى السرور الذى كان عنده ، لا أعدمه الله توالى المسرة ، ثم أنذرت من قبل ابلاغا فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين فى انكاره ومعاتبتك عليه فأعيت على عنك الحجة ، فعرفنى ـ أكرمك الله ـ ما العذر الذى أوجب توقفك عن اجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ورغب المشاركة فيه ، لتعرفه أبقاه الله بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة اليه ان شاء الله تعالى » .

فأجابه أبو ابراهيم « سلام على الأمير سيدى ورحمة الله ، قرأت أبقى الله الأمير سيدى هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفى لنفسى ، انما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه لعلمى بمذهبه ، وسكونى الى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم ، فانهم يستبقون من هذه الطبقة ببقية لا يمتهنونها بما يشينها ، ولا بما يغض منها ، ويطرق الى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمى بمذهبه توقفت ان شاء الله تعالى » .

فلما أقرأ الحكم أباه الناصر جواب أبى ابراهيم اسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره وزال ما بنفسه منه .

ويمكن أن نتبين من خلال ذلك أن الناصر كان يختار

[illegible] الذي المستقل [illegible] [illegible] الذي المستقل [illegible]
[illegible]

وقد استطاع [illegible] أن [illegible] إلى الإنسان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الإنسان [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الإنسان [illegible]
[illegible]
[illegible] ٣٧ [illegible]
[illegible] الإنسان [illegible]
[illegible] (١) [illegible] الإنسان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

---

(١) إحياء [illegible]

حجاج الذى استقل باشبيلية وابن جودى الذى استقل بغرناطة

وقد استطاع الناصر أن يعيد الى الأندلس وحدتها وينتصر على عوامل التفرقة العنصرية التى كانت ما تنفك تعمل على صدع هذه الوحدة والقضاء عليها وبذلك استطاع أن يمهد السبيل لوجود « الأمة الأندلسية » ، كما استطاع فى الخارج أن يدفع خطر مملكتى ليون ونافار عن الحدود الشمالية ويقاوم الخطر الفاطمى الذى هدد الأندلس من الجنوب .

وفى ظل الأمن والطمأنينة أقبل الناس على مباشرة أعمالهم فى جد ونشاط فتحسنت الأحوال الاقتصادية ، وعم الرخاء ، وساعد ذلك كله على فراغ المؤلفين للبحث والتأليف ، وقد عرف الناصر بتشجيعه للعلماء والباحثين فى كل ناحية من نواحى العلم وجانب من جوانب الثقافة ، ولم يبلغ أحد من الخلفاء مبلغ ابنه الحكم المستنصر فى سعة الاطلاع ، والاقبال على العلم ، وفرط العناية باقتناء الكتب ، وكان يدفع فى شرائها أغلى الأثمان كما فعل مع أبى الفرج الأصفهانى حينما وجه اليه ألف دينار ليرسل اليه نسخة من كتاب الأغانى ، وقد حضر أبو على القالى سنة ٣٤٠ هـ (٩٤١ م) الى الأندلس ورحب الخليفة عبد الرحمن بقدومه واحتفى به ، وحينما وفد على الأندلس (١) أمر الحكم بن الناصر — وكان يتصرف عن أمر أبيه الناصر كالوزير — عاملهم ابن رماحس أن يجىء مع أبى على الى قرطبة ويتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمة لأبى على ، ففعل وسار معه نحو قرطبة فى موكب

(١) الجزء الرابع من نفح الطيب صفحة ٧٠/٧١ .

نبيل ، فكانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم ويتناشدون الأشعار ، الى أن تحاورا يوماً وهم سائرون حول أدب عبد الملك ابن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل، وانشاده بيت عبدة بن الطبيب :

ثمت قمنا الى جرد مسومة
أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا على ، فأنشد الكلمة فى البيت « أعرافها لايدينا مناديل فأنكرها ابن رفاعة الألبيرى ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفى خلقه حدة ، فاستعاد أبا على البيت متثبتا مرتين فى كلتيهما أنشده « أعرافها » فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفا وقال « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين ، ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت شعر مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ والله لاتبعته خطوة » ، فدعاه ابن رماحس وأشار عليه بألا ينصرف ، فلم تجد فيه حيلة ، ولم يحد عن رأيه ، فكتب ابن رماحس الى الحكم يعرفه بما حدث ، ويصف له ما جرى ، ويشكو اليه ابن رفاعة ، فأجابه الحكم على ظهر كتابه « الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا من يخطىء وافد أهل العراق الينا ، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط عليه فدعه لشأنه ، وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته ، فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله أو يحطه » .

وكان هذا مسلك الأندلسيين مع العلماء الوافدين عليهم من المشرق ، فانهم كانوا يحاولون أن يكشفوا حقيقة علم هؤلاء الوافدين ، ويختبروا مدى معرفتهم ليزنوا أقدارهم ، ويتبينوا استحقاقهم للأخذ عنهم والثقة بعلمهم ، وقد

[illegible]
[illegible]
[illegible]
عبدة بن الطبيب :

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible] (١) [illegible]

[illegible] (٢) [illegible] ٨٧٢ [illegible]

[illegible] (٣) [illegible] (٤) [illegible]

---

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) [illegible]
(٤) [illegible]

أصابتها ، فكرمها وزوجها من أحد مواليه ، وكان من سلالة هذا المولى الأموى هذا العالم اللغوى المؤرخ .

ومن المؤرخين الأندلسيين الذين ظهروا فى هذه الفترة (١) أحمد بن موسى الرازى وكان يلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتاريخ ، وله فى أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وركبانهم وغزواتهم كتاب كبير ، وألف فى صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها وله كتاب فى أنساب مشاهير أهل الأندلس .

واشتهر بكتابة التراجم فى هذه الفترة (٢) أبو عبد الملك ابن عبد البر القرطبى مؤلف كتاب « فقهاء قرطبة » وهو من موالى بنى أمية ، ويقول عنه ابن الفرضى : أنه كان بصيراً بالحديث فقيها نبيلا ، وقد توفى سنة ٣٣٨ سجينا وكان قد اتهم بالاشتراك فى المؤامرة التى دبرها عبد الله بن الخليفة الناصر .

ومنهم (٣) أبو عثمان بن عبد البر الكشكنيانى وقد صنف كتابا عن « الفقهاء والقضاة بقرطبة والأندلس » وقد توفى سنة ٣٦٣ هـ ومنهم (٤) محمد بن الحارث الخشنى ، وأصله من القيروان ، ووفد على الأندلس ، وسمع عن علماء قرطبة ، وهو صاحب كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » وقد ترجم فيه لجمهرة من أهل القضاء والعلم فى الأندلس حتى عصره ، وفى الكتاب معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية فى

---

(١) جذوة المقتبس صفحة ١٠٤ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٣٨ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٤٩ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس القسم الثانى صفحة ١١٢ .

تلك البلاد منذ الفتح الى عهد الحكم المستنصر ، وله كتاب آخر عن «أخبار الفقهاء والمحدثين» وتعتبر كتبه من المراجع الدقيقة ؛ لأنه كان يعرف الكثير من شئون القصر ويطلع على العديد من السجلات، وكانت له صلات بالحكام والقواد والقضاة والأدباء ، وتوفى سنة ٣٦١ هـ .

وبرع فى الفقه عديدون وكان أكثرهم من أعلام المذهب المالكى الذى ساد فى الأندلس منهم (١) عبد الله بن محمد بن أبى دليم بن عبد الله ويقول عنه ابن الفرضى: انه كان نبيلا فى الحديث ضابطا لما روى بصيرا بالاعراب ، وقد ولاه المستنصر قضاء البيرة وبجانة وأحكام الشرطة وكانت له منه مكانة وتوفى سنة ٣٥١ .

وهناك فقهاء آخرون نبغوا فى فقه غير الفقه المالكى ومما ساعد على ذلك الحرية الفكرية التى أتيحت العلماء فى عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر ، منهم عثمان بن سعيد الكنانى وكان جامعا للكتب ومعتنيا بالعلم مناظرا على مذهب الامام الشافعى ، وألف كتابا فى شعراء الأندلس وتوفى سنة ٣٢٠ ومنهم أسلم بن عبد العزيز بن هاشم وقد ولى قضاء الجماعة بقرطبة مرتين وتوفى سنة ٣١٩ .

وكانت قد ظهرت البوادر الأولى للتفكير الفلسفى على يد ابن مسرة (٢٧٠ ـ ٣١٩) (٨٨٣ / ٩٣١) الذى أذاع بين مسلمى أسبانيا مبادىء الفيلسوف اليونانى أنباذوقليس وقد اتهم بالالحاد ففر من البلاد مدعيا أنه يريد الحج وظل خارج اسبانيا حتى تولى عبد الرحمن الناصر الذى اشتهر بالتسامح وتأييد العلماء فعاد اليها وأثر فى

---

(١) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٢٣٢ .

تلك البلاد منذ الفتح إلى عهد الحكم المستنصر . وله ثلاثة
كتب أخرى هي «أخبار الفقهاء والمحدثين» وتعتبر كتبه من أوائل
الحقيقة : لأنه كان يعرف الكثير من شيوخ الفقه والعلم
على العلماء من الإسبان التي كانت له مع الطلاب والفقهاء
والقضاة والأدباء ، توفي سنة ٣٢٦ هـ .

وبرع في الفقه عدد من أشهرهم ابن عبد البر
يوسف بن عبد الله (١) وهو من أهل الأندلس في سيرة ابن محمد
قرطبة وكان أبو عبد الله ابن الفرضي : أبو عبد الله بن مرزوق في
الحديث وكان له ... المعلم ، وكان له تصانيف مستنصر
قال عنه إنه كان خبيراً بالعلوم والأدب والفقه ، توفي
سنة ٤٥٦ .

والمؤلف في الفقه الأندلسي أصول الفقه يتبع المالكي
مذهب مالك بن أنس الذي كان أول عالم درس الفقه
في عهد الناصر والحكم المستنصر وهو من تلاميذ الأندلس
الذين جاءوا وهم محتاجون إلى الطب والمنطق في أن يصلوا
الإسلامي والشافعي ، وكان في تلك البلاد مؤرخون
وله مؤلف في العلوم المالكية بن جعفر بن علي . ٦٧ وتوفي
سنة ٦١٩ ، وتوفي بعد ابن أبي قبيلة أخرى .

وكانت له دراسة في الأدب والتاريخ والفلسفة على
ابن الأحمر (٦٨٨ \ ١٢٩) (٦١٩ - ٦٧٠) ابن ... أن
من أشهر المسلمين في علم الفلسفة والتي انتشرت في الأندلس
ولقد عرف من الأندلس من صاحب الأندلس إلى
المشارقة في علم الفلسفة عند المشرقيين في تلك الحقبة
في الأدب والعلم الفلسفة والتاريخ والأدب

(1) ترجمة الأندلس صفحة ٢٢٢ .

ومن أباد الكفر والنفاقا
وشرد الفتنة والشقاقا

ونحن فى حنادس كالليل
وفتنة مثل غثاء السيل

حتى تولى عابد الرحمن
ذاك الأغر من بنى مروان

مؤيد حكم فى عداته
سيفا يسيل الموت من ظباته

وصبح الملك مع الهلال
فأصبحا ندين فى الجمال

واحتمل التقوى على جبينه
والدين والدنيا على يمينه

قد أشرقت بنوره البلاد
وانقطع التشغيب والفساد

هذا على حين طغى النفاق
واستفحل النكاث والمراق

وضاقت الأرض على سكانها
وأذكت الحرب لظى نيرانها

ونحن فى عشواء مدلهمة
وظلمة ما مثلها من ظلمة

تأخذنا الصيحة كل يوم
فما تلذ مقلة بنوم

وقد نصلى العيد بالنواظر
مخافة من العدو الثائر

حتى أتانا الغوث من ضياء
طبق بين الأرض والسماء
خليفة الله الذى اصطفاه
على جميع الخلق واجتباه

وبعد أن ينوه بمآثر عبد الرحمن ويشيد بكرمه وبطولته وجمعه شمل الأمة وتجديده الملك الذى أخلق ، وتثبيته قواعده ، ينتقل الى وصف غزواته غزوة غزوة مما يجعل لهذه الأرجوزة أهمية خاصة من الناحية التاريخية ، وهى على سلاسة نظمها ودلالته على تمكنه اللغوى وقدرته على النظم ينقصها روعة الشعر ، وقوة الخيال ، وطلاوة الفن ، وفى مستهل حديثه عن عبد الرحمن الناصر فى كتابه المشهور المسمى بالعقد الفريد يقول « ثم ولى الملك القمر الأزهر ، الأسد الغضنفر ، الميمون النقيبة ، المحمود الطريقة سيد الخلفاء ، وأنجب النجباء ، عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين.. وتولى الملك والأرض جمرة تحتدم ، ونارا تضطرم شقاقا ونفاقا ، فأخمد نيرانها وسكن زلازلها ، وافتتحها عودا كما افتتحها بدءا سميه عبد الرحمن بن معاوية ، رحمه الله ، وقد قلت وقيل فى غزواته كلها أشعار ، قد جالت فى الأمصار ، وشردت فى البلدان ، حتى أتهمت وأنجدت وأعرقت ، ولولا أن الناس مكتفون بما فى أيديهم منها لأعدنا ذكرها أو ذكر بعضها ، ولكننا سنذكر ما سبق الينا من مناقبه التى لم يتقدم اليها متقدم ، ولا أخت لها ولا نظير ، فمن ذلك أول غزوة غزاها ، وهى الغزوة المعروفة بغزوة المنتلون ، افتتح بها سبعين حصنا ، كل حصن منها قد نكلت عنه الطوائف وأعيا على الخلائف وفيها أقول :

حتى الآن الغيث من فيه

بقيت بين الأرض والسماء

خليفة الله الذي اصطفاها

على جميع الخلق أجابها

[illegible]

ولابن عبد ربه أشعار ثمينة سماها « الممحصات » وذلك
أنه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ
والزهد محصها بها كالتي قالها في لهوه وعبثه ، ثم قال ذلك أنه
قال في صباه الأبيات الآتية وكان بعض من ألفاظه أوجد
الحيارى في قاعة جرى ، تأتي المساء في تلك القاعة يضم
الحيارى ويغني الحيارى ، فتكتب الأبيات لابن عبد ربه :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يأبى عليك الله والقدر

ما زلت أبكي حذار البين ملتهفا
حتى رثى لي فيك الريح والمطر

يا برده من حيا مزن على كبد
نيرانها بغليل الشوق تستعر

آليت أن لا أرى شمسا ولا قمرا
حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقال يمحصه بالقطعة الآتية :

يا عاجزا ليس يعفو حين يقتدر
ولا يقضي له من عيشه وطر

عاين بقلبك إن العين غافلة
عن الحقيقة واعلم أنها سقر

سوداء تزفر من غيظ إذا سعرت
للظالمين فلا تبقي ولا تذر

إن الذين اشتروا دنيا بآخرة
وشقوة بنعيم ساء ما تجروا

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه
ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر

ولابن عبد ربه أشعار كثيرة سماها « الممحصات » وذلك أنه نقض كل قطعة قالها فى الصبا والغزل بقطعة فى المواعظ والزهد محصها بها كالتوبة منها والندم عليها ، مثال ذلك أنه نظم فى صباه الأبيات الآتية وكان بعض من يألفه أزمع على الرحيل فى غداة ذكرها ، فأتت السماء فى تلك الغداة بمطر حال بينه وبين الرحيل ، فكتب اليه ابن عبد ربه :

هلا ادكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يأبى عليك الله والقدر

ما زلت أبكى حذار البين ملتهفا
حتى رثى لى فيك الريح والمطر

يا بردة من حيا مزن على كبد
نيرانها بقليل الشوق تستعر

آليت أن لا أرى شمسا ولا قمرا
حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقد محص هذه القطعة بالأبيات الآتية :

يا عاجزا ليس يعفو حين يقتدر
ولا يقضى له من عيشه وطر

عاين بقلبك ان العين غافلة
عن الحقيقة واعلم أنها سقر

سوداء تزفر من غيظ اذا سعرت
للظالمين فلا تبقى ولا تذر

ان الذين اشتروا دنيا بآخرة
وشقوة بنعيم ساء ما تجروا

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه
ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر

لو لم يكن لك غـــير الموت موعظة
لكان فيك عن اللذات مزدجـــر

أنت المقـــول له ما قات مبتـــدئا
هــلا ادكرت لبين أنت مبتـــكر

ولابن عبد ربة فى النثر كتابه الشهير المعروف « بالعقد الفريد» جرى فيه على طريقة المشارقة فى فن التأليف الأدبى، وقد جمع فيه الكثير من الرسائل والخطب والقصائد والقصص والأخبار التاريخية ، وتعرض فيه للبـــلاغة والنقد والعروض والموسيقى وقد قسم كتابه الى خمسة وعشرين بابا وسمى كل باب باسم حبة من حبات العقد الحقيقى ، وجعل تلك الأبواب فى ترتيبها كحبات العقد المنظوم فى ترتيبه ، والكتاب فى مجموعة مزيج من الأدب والتاريخ والأخبار والطرائف والنوادر والشعر والنثر والحكم والأمثال وأكثر مواد الكتاب تتصـــل بالمشرق وتاريخه ، ليس فيه سوى القليل من أخبار الأندلس مما بعث الصاحب بن عباد على أن يقول حينمـــــا اطلع على الكتاب « هذه بضاعتنا ردت الينا » ويبدو أن ابن عبد ربه أراد أن ينقل الى مواطنيه فى الأندلس من انتاج الثقافة الأدبية الشرقية ما يغنيهم عن الرجوع الى كثير من الكتب والمراجع .

ومن الشـــعراء المشارقة الذين أثروا فى الأدب الأندلسى أبو الطيب المتنبى وقد عاش أبو الطيب خلال عهد النـــاصر (ولد سنة ٣٠٣ وتوفى قتيلا سنة ٣٥٤) وقد لقيه بمصر الأديب الأندلسى (١) زكريـــا بن بكر بن أحمد الغســـانى المعروف بابن الأشج ، وأخذ عنه ديوان شعره رواية واذاعه بها ، وتأثير المتنبى ظاهر فى الكثيرين من شعراء الأندلس

(١) تاريخ علماء الأندلس صفحة ١٥٢ .

[illegible]

[illegible]

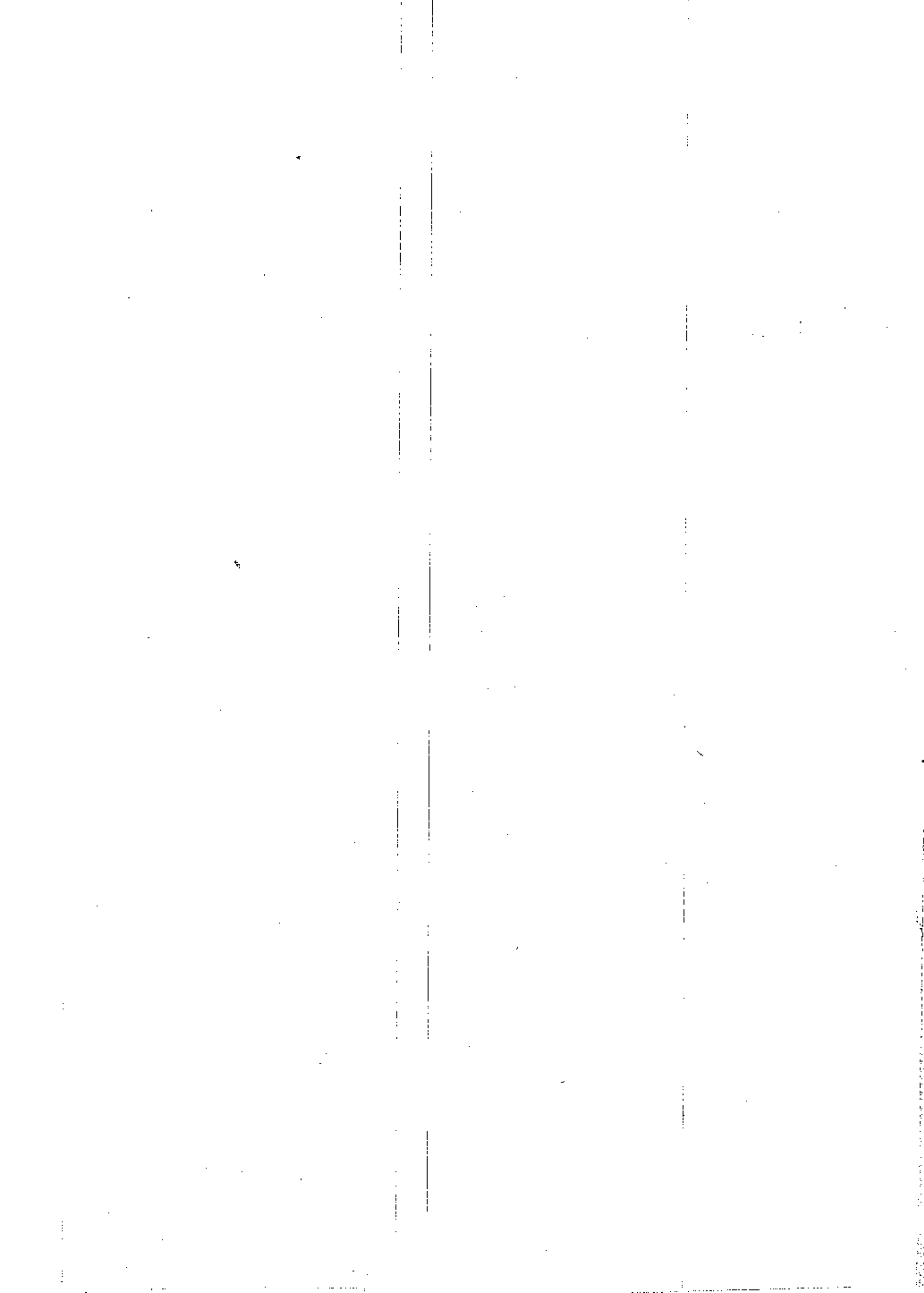
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(1) [illegible] الاسلام صفحة ١٥٧ .



عبد الرحمن الناصر
فى حياته الخاصة

كان الناصر فى حياته الخاصة دمث الأخلاق راجح الحلم، وكان على علاء جانبه واستيلاء هيبته يرتاح للشعر ويتبسط الى أهله ، ويراجع من خاطبه به من خاصته ، روى صاحب « كتاب الحدائق » عن أبى بكر اسماعيل بن بدر - وكان مولى نعمة لبنى أمية - وهو من أهل قرطبة وغلبت عليه صناعة الشعر ، انه خاطب الناصر فى غزاة كان آلى ألا يأنس فيها بمنادمة أحد حتى يفتتح معقلا ، فافتتح معقلا بعد آخر ،وتمادى على عزمه فى العزوف عن المنادمة .

فكتب اليه اسماعيل بن بدر(١) :

لقد خلت حميا الراح عندى
وطابت بعد فتحك معقلين

وآذن كل هم بانفراج
وأن يقضى غريم كل دين

فلم يحرك هذا الشعر الناصر ولم يثنه عن عزمه ، فعاوده

(١) الجزء الأول من الحلة السيراء صفحة ١٩٩/٢٠٠ .

عبد الرحمن الناصر

[illegible]

[illegible]

• [illegible] »

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] مولانا [illegible]

[illegible] عبد الله [illegible] مولانا [illegible]

[illegible] مولانا [illegible]

[illegible] مولانا [illegible]
[illegible] قليلا ثلاث في [illegible]
[illegible] بن [illegible] بن [illegible]
[illegible] بن [illegible]
[illegible] مولانا [illegible]

« كان فقيها شافعيا ، شاعرا أخباريا متنسكا ومن شعره ٠

أما فؤادى فكاتم ألمه
لو لم يبح ناظرى بما كتمه

ما أوضح السقم فى ملاحظ من
يهوى وان كان كاتما سقمه

ظللت أبكى وظل يعذلنى
من لم يقاس الهوى ولا علمه

اليك عن عاشق بكى أسفا
حبيبه فى الهوى وان ظلمه

ظلت جيوش الأسى تقاتله
مذ نذرت أعين الملاح دمه

وكان ولدا الناصر هذان يتباريان فى طلب العلم وجمعه ويتبادران الى اصطناع أهله والاختصاص برجاله ، وادناء منازلهم والاحسان اليهم ، وكان العالم الأديب الأندلسى الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر وهو من الفقهاء الذين عاشوا فى عهد الناصر ـ من أصحاب عبد الله المختصين به حتى لايكاد يفارقه ، فسعى الى الخليفة الناصر بابنه عبد الله ، ورفع عليه أنه يريد خلعه ، ويدعو الى القيام معه ، وانجماعات من طبقات الناس دخلوا فى ذلك معه : وأمنهم على أن يثوروا به فى يوم عيد قد اقترب اليه ٠

ولما علم الناصر بذلك أرسل فى الليل من قبض على ولده عبد الله وحبسه ، وألفى عنده فى تلك الليلة الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر وفقيها آخر ـ وهو أحمد بن عبد الله بن العطار كانا بائتين عنده فأخذا وحملا الى الزهراء حاضرة الناصر بأسفل قرطبة فأمر بسجنهما ، وعرف الوزراء

يخبره ولده عبد الله ، وكشف لهم عظيم ما أراد أن يحدثه عليه وعلى المسلمين فيه وتبرأ منه ، وأعلمهم بمسارعته الى القبض عليه ، ووجد أن يسلمه هذين الفقيهين النطفين البائتين عنده ، وقال لهم « ما أعجب الا من مكان ابن العطار عنده ! ما الذى أدخله فى هذا مع غباوته وقلة شره ؟ وأما ابن عبد البر فأنا أعلم أنه الذى زين لهذا العاق ذلك ليكون قاضى الجماعة ، ويأبى الله ذلك » .

فهنأه الوزراء بالسلامة ، ودعوا الله له ، وعزم الناصر على أن يعاقب ابن عبد البر يوم العيد ـ عيد الأضحى ـ الذى كان التدبير عليه فيه ، فأصبح ابن عبد البر يوم العيد نفسه ميتا فى السجن ، وأسلم الى أهله فدفن بمقبرة الربض سنة ٣٣٨ ، وتأنى الناصر بابنه عبد الله مديدة الى أن قتله فى آخر سنة ٣٣٨ ، وكان عبد الله هذا يلقب بالزاهد ، وقد أبى الناصر أن يترفق بابنه فكانت خاتمته مثل خاتمة أبى الناصر نفسه ، وكانت الجرائم التى ترتكب ضد أمن الدولة لايتهاون فى أمر المقدم عليها ، وكان على الدوام جزاؤه الاعدام مهما تكن قرابته من ولى الأمر ، وقليل من الأمراء الأمويين من لم تشب ذكراهم ذكرى قتلهم لأحد أبنائهم ، ولم تكن هذه هى المؤامرة الوحيدة التىدبرت لاغتيال الناصر،فان ابن عذراى(١) يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٩ هـ أمر الناصر بقتل العاصى بن الامام عبد الله ومحمد بن عبد الجبار بن الامام محمد اذ شهد كل واحد منهما على صاحبه بمطالبته للخلافة ونقض البيعة وكثرا فى ذلك كما(٢) يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٧هـ أمر بقتل موسى بن زياد الذى ولى الوزارة فى أيام الامام عبد الله وكثرت مطالبه للناس وكان يجاهر بكراهية الناصر،ويرفع عليه الى جده

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٢٧٢ .

(٢) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٢٦٢ .

ويغرى الامام عبد الله برجاله فحبسه الناصر ولم يزل محبوسا الى أن أمر بقتله .

وكان الناصر يلين ويعفو فى الأمور التى لا تمس أمن الدولة ، ويحدثنا (١) ابن عذارى أن السيدة ابنة الامام عبد الله التى توفيت سنة ٣١٩ هـ كانت نافرت الناصر فى أيام حداثته وقبل افضاء الخلافة اليه وطالبته وأدته عند أبيها عبد الله الامير ، فلما ولى الناصر لم تشك فى معاقبته لها ومجازاته لسوء معاملتها ، فكان الأمر على خلاف ظنها ، وقرب الناصر مكانها ، ورفع منزلتها ، واختصها فى جملة من اختص من أهله وبنات أعمامه حتى صارت أقربهن محلا منه .

ومن أفضاله مع بعض عماله ما رواه المؤرخ الأندلسى حيان ابن خلف وهو أن محمدا بن سعيد المعروف بابن السليم كان قد احتجن أموالا كثيرة خلال تصرفه فى كبار الولايات فى المدة الطويلة التى عمل بها ، وعلم بذلك الناصر ، فعرض له مرارا فى أن يسهمه فيه عن طيب نفس منه ، وهو ملكه ولو شاء لأخذه منه ، ولكن أبى له ذلك كرم طبعه ، فقال فى مجلسه يوما « ما بال رجال من خاصتنا توسعوا فى دنيانا ، فطفقوا يحتجنون الأموال وهم يرون غليظ مئونتنا فى الانفاق على شئوننا التى بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ، ورفاهية عيشهم ، ويعلمون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاسم عماله قسطا من الموازين فى أرباحهم فى عمالاتهم ، فصيرها فى بيت المال وهم من هم وهو من هو ، والأسوة فى فعله » .

فسكت ابن السليم عنه ، وخالطه فى تعريضه كأنه يعنى غيره فازداد الناصر حنقا عليه وغيظا ، فقال له يوما

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٣٠٩ .

فى بعض مجالسه الخاصة معه وقد أخذ الشراب منه ، وشق تفاحة بسكين فى يده « وددت أن أشق هكذا رأس من أعرف له مالا كثيرا غله دوننا ، ولم يسهم لبيت المال منه » .

فطار عقل ابن السليم ، ولم يختلجه الشك فى أنه المعنى به ، فقام بين يديه وقال « بلى ، والله ان عندى مالا كثيرا ، وهو دون ظنك فيه ، حطته بالتقتير ، وأعددته للدهر العثور ، ولست والله أعطيك منه درهما فما فوقه ورأيك فى جميل ، الا أن تستحل ، وأعوذ بالله ان تمد يدك اليه بغير جناية منى عليك ، فان الأنفس محضرة الشح » .

ولم يكن عند الناصر بينة يدين بها الرجل ، أو حجة يستطيع أن يؤيد بها شبهة غامضة أو اتهام خفى ، فخجل وأطرق وتلا قوله تعالى « ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » .

ثم أقبل على ابن السليم يؤنسه ويسكن جأشه الى أن اعتدل مجلسه فجعل يمعن فى الشرب طلبا للسكر للذى خامره من الذعر .

فقال له الناصر « خفض عليك يا محمد فلا سبيل اليك » .

وعمل على ازالة ما علق بنفسه وقال له « ليتنى أخرج كفافا من شأنى معك الليلة تأنيسا باخافة والطافا بجفوة »

ثم أمر له بكسوة .

وأحدثت هذه المعاملة الكريمة والتلطف فى المواساة أثرهما فى نفس ابن السليم ، فلم تمض أيام حتى أرسل الى الناصر بمائة ألف ، فقبلها الناصر وشكر فضله ، وعوضه بكبير الولاية ، وصحبته منه النعمة العريضة الى حين وفاته .

ويرى لنا (١) ابن عذارى أن الخليفة الناصر جلس يوما مع بعض خاصته وفيهم الوزير ابن جهور ووزيره أبو القاسم لب ، وأراد الناصر أن يمازحهم فقال « يا لب ، اهج الوزير عبد الملك بن جهور » .

فامتنع لب خشية أن يفسد ما بينه وبين الوزير .

فقال الناصر لابن جهور « اهجه أنت اذ أبى هو هجوك » .

فقال ابن جهور « يا أمير المؤمنين أتوقى عرضي منه وأصون نفسي » .

فقال الناصر « فأنا أهجوه » وأنشد :

لب أبو القاسم ذو لحية
طويلة في طولها ميل

والتفت الى ابن جهور قائلا « لا بد لك من تذييل هذا البيت ، ودع الاعتذار »

فقال ابن جهور :

وعرضها ميلان ان كسرت
والعقل مأفون ومدخول

لو انه احتاج الى غسلها
لم يكفه في غسلها النيل

فضحك الناصر ، وقال للشاعر المهجو « انه قد سبب لك القول فقل »

(١) البيان المغرب الجزء الثاني صفحة ٣٣٩ .

فقال لب :

قال أمين الله في خلقه
لى لحية ازرى بها الطول

وابن جهير قال قول الذى
مأكله القرطيل والفول

لولا حيائى من امام الهدى
نخست بالمنخس شو

ولما بلغ الى قوله « شو » سكت ، فقال له الناصر « قولوا » .

فقال له لب « انت هجوته يا مولاى » .

والاضحاك عنها يأتي من استعمال (١) لفظتين رومانيتين وهما « شو » و « قولو » واللفظة الاولى تدل على ضمير الملك واللفظة الثانية معناها الردف .

وقد أدت الصلة اللغوية بين العنصرين : العربى والاسبانى فى فترة الخلافة الى تسرب مثل هذه الألفاظ الأجنبية الى لغة الشعر .

وكان الناصر مع حسن خلقه ، ومأثور حلمه ، ربما ألمت به فى المنادمة وسوسة تكدر ما عرف عنه وما يعتاد منه ، ولما كثرت أقلع عن المنادمة والتزم الزهد ، ومن قبيح ما يروى عنه قصته مع الجارية التى كان يؤثرها ، وكانت عنده بمنزلة حبابة من يزيد فأسرف فى الشراب ذات ليلة وأكثر من تقبيلها ، فأكثرت التضجر والتبرم وقبضت وجهها

---

(١) الأدب الأندلسى للدكتور احمد هيكل صفحة ٢٣٦/٢٣٨ .

وساءه ذلك وأغضبه ولم يستطع كبح جماح نفسه وهو تحت سلطان الشراب ، فأمر ألا يزال وجهها يلثم بألسنة الشمع وهى تستغيث فلا يرحمها حتى هلكت .

وتركت هذه الحادثة فى نفسه ألما شديدا وندما فأمسك عن الشراب والمنادمة وقد استعان عبد الرحمن الناصر ببعض أقاربه من بنى أمية الذين كان يطمئن اليهم ويثق بولائهم فاختار بعضهم للوزارة وعهد الى بعضهم بقيادة الصوائف ومن هؤلاء عمه أبان ابن الأمير عبد الله فقد قاد الصائفة فى سنة ٣٠٢ هـ وتردد بجيشه فى كوة رية ،ونازل حصونها وحطم زروعها وقطع ثمارها ، وهكذا كان عبد الرحمن يحاول الاستفادة من أصحاب المواهب والكفايات سواء كانوا يمتون اليه بصلة القرابة أو بصلة الولاء أو بحكم العلاقة القديمة بين أسراتهم والأسرة الأموية ومشاركتهم لها فى توطيد مكانتها واعلاء شأنها ، ومن هذا القبيل تقديمه لأفراد من بنى شهيد وبنى حدير وغيرهما من الأسرات التى ارتبط ماضيها بماضى الأسرة الأموية فى الأندلس .

وفاة
عبد الرحمن الناصر

فى شهر صفر سنة ٣٤٩ هـ كان ابتداء علة الناصر ، وكان سببها برد شديد أصابه ، فأرجف به ، وخيف عليه وأكبت الأطباء على معالجته حتى خفت وطأة المرض قليلا فتحامل على نفسه وتجشم القعود لخاصته فى الأيام العشرة الاولى من جمادى الاولى ، ووصل اليه أكابر الصقالبة مثل مظفر وغيره واستبشر الناس بما بدا عليه من تحسن حالته وسألوا الله كمال عافيته ، ولبث بعد ذلك أشهرا تشتد به العلة حينا ، وتخف وطأتها حينا ، حتى ضعفت مقاومته ووافاه القدر المحتوم فى شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (أكتوبر ٩٦١ م) .

ووجد بخطه تاريخ قال فيه « أيام السرور التى صفت لى دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعدت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوما ، ويعلق ابن عذارى على ذلك بقوله (١) فاعجب أيها الغافل لهذه الدنيا ، وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ، ان الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم يصف له من الدنيا الا أربعة عشر يوما ، فسبحان ذى العزة العالية ، والمملكة الباقية ، تبارك اسمه ، وتعالى جده » .

---

(١) الجزء الثانى من ابن عذارى صفحة ٣٤٦ .

وهكذا كانت خاتمة الناصر « حلف السعود والمضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود » كما (١) يقول المقرى

ومما ينسب اليه من الشعر قوله :

ما كل شىء فقدت الا
عوضنى الله منه شيا

انى اذا ما منعت خيرى
تباعد الخير من يديا

من كان لى نعمة عليه
فانها نعمة عليا

وقد رثاه جعفر بن عثمان المصحفى فقال :

الا ان أياما هفت بامامها
لجائرة مشتطة فى احتكامها

فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها
وأحداثها الا قلوب عظامها

تأمل ! فهل من طالع غير آفل
بهن وهل من قاعد لقيامها

وعاين فهل من عائش برضاعها
من الناس الا ميت بفطامها

كأن نفوس الناس كانت بنفسه
فلما توارى أيقنت بحمامها

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٣٥٦ .

فطار بها بأس الأسى وتقاصرت
يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

وقد مات الناصر أعظم ما كان سلطانا ، وأعز ما كان في الدول الاسلامية المعاصرة له مكانا ، بعد أن أتم رسالته ، ووطد لملك بني أمية في الأندلس أسمى مكانة .

عبد الرحمن الناصر في الميزان

وفق الناصر فى استنقاذ الحضارة الأندلسية الاسلامية الزاهرة مما كان يتهددها من الأخطار الداخلية الماحقة ، والأخطار الخارجية الساحقة ، وذلك بفضل سياسته الحازمة ، ومثابرته الدائبة ، وجمعه بين اللين والشدة ، والرحمة والقسوة ، ولبسه لكل حالة ما يلائمها ، وحسن فهمه وتأتيه فى علاج المشكلات التى واجهته ، وقد تدخل بمهارة بارعة فى الخصومات بين الليونيين والقشتاليين والنافاريين واجتهد فى اضعافهم ، ودفع أذاهم عن سلطانه ، ومكن سيطرته عليهم ، وناجز الفاطميين الذين سادوا المغرب وصقلية ، واستطاع أن يضع حدا لمطامع الشيعيين الذين كانوا يتطلعون الى انشاء دولة اسلامية عالمية شاملة واخضاع الناس جميعا للمهدى الظاهر أو المستتر .

وكان من أسس القوة التىاعتمد عليها الناصر فى توطيد سلطانه وتثبيت مكانته تلافيه ناحية الضعف التى كانت تؤثر فى كيان جيوش الدولة الاموية بالاندلس وهى تكوين تلكالجيوش من قبائل متنافسة تحضر رجالها باعلامها وألويتها ويدينون بالولاء أول ما يدينون لزعماء قبائلهم وسادة بيوتاتهم ، فأنشأ طائفة جديدة من الجند ممتازة مخلصة لشخصه وفية لعهده ،

تدين له بالولاء ، واضاف الى عداد الجيوش جماعات من الموالى الجدد كونها من عناصر مختلفة الأصول ، وهم المسمون بالصقالبة . وكان معظمهم يجلب من أوروبا الوسطى ومن شمال اسبانيا ومن نواحى البلقان وكانوا يربون منذ نعومة اظفارهم فى قصر الخلافة ، وتبذل العناية فى تأهيلهم وتعليمهم وتمهد لهم السبل لاعتلاء المناصب السامية حتى أصبحوا يكونون صفوة رجال الدولة وقادة الجيش ورجال البلاط الخليفى، وكان عددهم يتزايد وثروتهم تعظم ونفوذهم يترامى ويتسع ، حتى كونوا فى المجتمع الاندلسى طبقة بارزة ممتازة .

واضفى الناصر على الاندلس النظام ، وذلل لها سبل الرخاء ، وهيأ لها الاحترام والتقدير بين دول العالم المتحضر فى عصره وزاد فى موارد الثروة بتشجيعه الزراعة والتجارة والصناعة والفنون والعلوم والآداب .

وقد حكم الناصر خمسين سنة ويعد من حيث مدة الحكم من أطول امراء المسلمين عهدا ، وقد عرف كيف يفيد من ذلك الحكم الطويل فقد أنفق نصفه تقريبا فى اقرار الامن والقضاء على الخارجين ورد مطامع الطامعين ، وعرف بعد ذلك كيف يجنى ثمرة الجهد المبذول ، والعناء الذى احتمله فطابت أيامه الى حد كبير خلال النصف الثانى من حكمه وترامت شهرته فى أنحاء العالم ، وكان الناصر حاكما مطبوعا يعرف كيف يسوس الناس والأمر امره ، وكيف يستجلب مودتهم ، ويفوز باخلاصهم ، ومناصحتهم ، ولم تفسده السلطة المطلقة ، ولم تصدق فيه تلك الكلمة المشهورة المأثورة عن السياسى العالم المؤرخ البريطانى اللورد أكتون وهى قوله « ان السلطة مفسدة والسلطة المطلقة تفسد افسادا

مطلقا » ولقـد استمتع النـاصر فى الجزء الأكبر من حـكمه بالسلطة المطلقة فلم تفسده ، وكانت هنـاته وسقطاته جد قليلة ، فالسـلطة المطلقة لم تعصف بعقله ، ولم تخرجه عن الجادة .

ويعـد الناصر من النـاحية الادارية من أقدر خلفـاء الاسلام ، وأعظم الحكام وقد فرضت عليه التجارب القاسية التى مر بها والمشكلات التى تناولها الميـل الى جمع مقاليـد السلطة جميعها فى يده ، على خلاف ما سـار عليـه الأمراء الاندلسيون قبله ، فقد امتازت حكومات الاندلس قبل عهده بحرية واسـعة يمنحهـا الامراء لكبـار رجال الدولة ولاهل النواحى البعيدة عن العاصمة مما كان يجعـل تلك الامارات تشـعر دائما بالعزة والاستغلال مع الاكتفاء بأداء الضريبة ، والمشـاركة فى امداد الجيش ، وقد رأى النـاصر ان هـذا الاستغلال من دواعى وقوع الفتن ، وحدوث الثورات والخروج على الطاعـة ، وتفكيك وحدة الأمة ، وانه مدعـاة لظهـور العصبيات القبلية والنعرات الجنسـية والعقيدية ، وصمم على أن يقلم أظافر المنتسبين الى البيـوتات الكبيرة ، والأسر الارستقراطية ، وتمشيا مع سياسة القضاء على العصبيات استكثر من الصقالبة ، وعنى بتعليمهم وتدريبهم وصقلهم ، وعهد اليهم بالمناصب السامية والقيادات العليا مما أثار عليه حفيظة زعماء العرب والبربر ، وظهرت أثار هـذه النقمة فى واقعة الخندق التى لقى فيها الناصر أول هزيمة سـاحقة ، ولكن هذه النتيجة لم ترجعه عن عزمه ولم تحمله على تغيير سياسته التى وضع أصولها منذ ولى الحكم ، وقد كان جده الامير عبـد الله قد (١) بنى السـاباط بين القصر والجـامع

(١) الجزء الثانى من ابن عذارى صفحة ٢٣٩ .

بمدينة قرطبة رغبة فى شهود الجمعة والمحافظة على الصلوات، وكان يقعد فى الساباط قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على أخبارهم وحركاتهم ويسر بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفى عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضا على بعض أبواب قصره فى أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرئبا لذلك ، فلا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انهاء مظلمة على لسانه ، ولكن الناصر لم يكن راضيا عن هذه السياسة ، وكان يرى أنها مضيعة للوقت والجهد وأن من الخير أن يفرغ الأمير لكبريات المشكلات ، ويعهد الى رجاله بالنظر فى أمثال هذه الامور ، وهم تحت رقابته من أحسن منهم أبقاه ، ومن أساء عزله أو استبدل به غيره ، ونقله الى عمل آخر .

ولم تحل مهام الحرب ومطالب السياسة دون قيام الناصر بأعمال الانشاء العظيمة ، وفى مقدمتها انشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الاندلس المملوكية وقد بلغت قرطبة فى عصره أوج العظمة والازدهار ، وأصبحت تفوق منافستها فى الشرق بغداد فى البهاء والفخامة .

وقد عنى الناصر باصلاح الاسطول وتجديده واستطاع بذلك السيطرة على مياه اسبانيا الجنوبية الشرقية وأن ينازع الفاطميين السيادة فى الشق الغربى من البحر المتوسط .

وتوطدت فى عهده الاحوال الاقتصادية وامتلأت خزائن الدولة بالاموال وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة وبلغت الجبانة أرقاما مدهشة قدرت بخمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم

التى لا تحصى ، وقيل انه خلف عند وفاته فى بيوت الاموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف دينار (خمسة آلاف مليون) دينار ، وكان يقسم الجباية من أجل النفقة الى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة وثلث يدخر للطوارىء .

ويقول المؤرخ الكبير راينهارت دوزى(١) : «عبد الرحمن الثالث هو بلا نزاع أعظم أمراء الأمويين الذين حكموا اسبانيا، وقد قاربت منجزاته حد الاعجاز ، فقد وجد البلاد فريسة للفوضى والحرب الداخلية وقد مزقتها الخلافات الحزبية وتقسمتها مئات من صغار زعماء الأجناس المختلفة ومعرضة لغزوات المسيحيين من الشمال ، وعلى شفا أن يستولى عليها الليونيون أو الفاطميون من افريقية ، وبرغم العقبات الكثيرة استطاع أن ينقذ الأندلس من نفسها ومن السلطة الأجنبية ، ورفعها الى منزلة أسمى وأقوى مما بلغته من قبل ، وكسب لها السلام والرخاء فى الداخل ، والمكانة والاحترام فى الخارج ، وقد وجد الخزينة العامة فى حالة من الفراغ محزنة وتركها غاصة بالمال ، وكان يكفى ثلث الدخل القومى البالغ ٦ر٢٤٥ر٠٠٠ من القطع الذهبية للمصروفات العادية ، وكان يحتفظ بثلث الدخل وينفق الباقى للمنشآت العامة ، وقد قدر أنه فى سنة ٩٥١ م (٣٤٠ هـ) كان فى الخزينة الملكية ما يبلغ عشرين مليونا من القطع الذهبية ، ويؤكد لنا رحالة خبير بالشئون المالية ان عبد الرحمن والحمدانى (٢) الذى كان يحكم حينذاك بالعراق كانا أغنى أمراء المسلمين فى ذلك

---

(١) اسبانية الاسلامية لدوزى صفحة ٤٤٥/٤٤٦ .

(٢) الحمدانى الذى كان يحكم حينذاك فى العراق هو سيف الدولة والرحالة الذى يشير اليه دوزى هو ابن حوقل .

العهد ، وكانت حالة البلاد متجاوبة مع رخاء الخزينة العامة ، وقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وفنون العلوم ، وقد سر عينى الرحالة رؤية الحقـــول التى أجيد زرعها من كل جانب والتى كانت ترويها المياه على أحدث الطرق العلمية حتى ان الثرى الذى كان يبدو قحلا عقيما صار خصبا ممرعا ، وقد أدهشـــه النظام الكامل المسيطر حتى فى الأماكن التى يتعذر الوصول اليها ، وذلك بفضل رقابة العسس الساهر ، وأثار تعجبه رخص أثمان السلع واللوازم المنزلية (فأشهى الفواكه كانت غاية فى رخص الثمن) والاناقة فى الملابس الغالية وبوجه خاص الارتفاع العام لمستوى المعيشة الذى مكن كل انسان بدون استثناء على وجه التقريب من أن يمتطى صهوة بغــل بدلا من ان يسعى على قدميه ، وكانت قرطبة والمرية وغيرهما من المدن ، حافلة بمختلف الصناعات ، وقد بلغ تقدم التجارة الى حـــد أن المشرف العام على الجمارك يذكر فى تقريره ان رسوم الوارد والصادر كانت تكون الجزء الأكبر من الدخــل القومى وكانت قرطبة بسكانها البالغ عددهم نصــف المليون وبمساجدها ثلاثة الآلاف وقصورها الفخمة ومنازلها البالغ عددها مائة وثلاثين ألف منزل وأرباضها الثمانية والعشرين لا يفوقها فى اتساع الرقعة والفخامة سوى بغداد وهى المدينة التى كان الأندلســـيون يحرصون على الموازنة بينهـــا وبين مدينتهم ، وقد وصلت شهرة قرطبة الى ألمانيا حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التى اشـــتهرت بنظمها فى أواخر القرن العــاشر أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « جوهرة الدنيا » ، وكانت المدينة المناظرة لها التى بناها عبد الرحمن لا تقل عنها بهاء وروعة ،ـ ولم يترك النــاصر شيئا يزيد فى بهائها ، وقد صارت قوة عبد الرحمن لا تقاوم ، فالأسطول الذى أنشأه مكنه من أن ينافس الفاطميين

فى سيادتهم على البحر المتوسط ، وامتلاكه لمدينة سبتة جعل مفتاح موريتانيا فى يده ، ومكنه جيشه الحسن النظام ـ والذى ربما كان أحسن جيوش العالم نظاما فى تلك الفترة ـ من أن يكون له الغلبة والتفوق على المسيحيين فى الشمال ، وأعظم الملوك كبرياء سعوا الى محالفته ، وامبراطور القسطنطينية وحكام ألمانيا وفرنسا وأيطاليا ارسلوا السفراء الى بلاطه .

وهذه الانجازات عظيمة من غير شك ، ولكن الذى يثير دهشة دارس ذلك العهد الزاهر ويبعث على الاعجاب ليس هو البناء بقدر ما يثيره ويبعثه مشيد البناء نفسه ـ تثيرهما قوة ذلك العقل المستوعب الذى لم يفلت منه شيء والذى كانت سيطرته على التفصيلات لا تقل أثارة للاعجاب عن سيطرته على أسمى التصورات ، وهذا الرجل الأحوذى الحكيم الذى وحد الأمة وقوى موارد ثروتها والذى بما عقد من محالفات وأجرى من اتفاقات ومعاهدات أوجد توازنا للقوى ، والذى اتسع تسامحه فكان يدعو الى الاستشارة رجالا يدينون بديانة غير ديانته مثل هذا الرجل أجدر بأن يكون مثالا للحاكم فى العصر الحديث أكثر مما هو خليفة فى العصر الوسيط » .

ويقول المؤرخ ليفى بروفنسال « عشية اختفى الناصر كان يمكن تقدير العمل العظيم الذى اضطلع به فى اتساع مداه خلال الأيام منذ ابتداء حكمه ، فقد كون من مملكة قرطبة التى كانت لا تنقطع عنها الحروب الداخلية وتنافس القبائل وتصادم الجنسيات المختلفة بعضها مع بعض فى أثناء حكم أسلافه كون منها دولة تنعم بالسلام والثراء والرخاء ولم يتوان فى محاربة المسيحيين ، وحافظ بقوة السلاح على أمن حدوده ، ودفع الخطر الفاطمى بصلابة واقتدار ، ومن ذلك

الحين صارت قرطبة عاصمة اسلامية تنافس القيروان ومدن الشرق العظيمة ، وفاقت العواصم الأخرى الغربية الأوربية ، وحصلت على شـــهرة فى عالم البحر الأبيض لها مكانة كبيرة حتى صارت لا تقـــارن الا بالقسطنطينية ، ولا نزاع فى أن امتداد حكمه الذى تجاوز المألوف كان له فضل فى الوصـــول الى هذه النتائج ، فقد مكنه من أن يتابع خلال عشرات السنين سياسة موحدة مطردة قائمة على الارادة الحسنة وعلى الايمان بالسلطة المطلقة ، ولكنها خالية من الاخطاء التى يقع فيهـــا امراء أقل منه فى المواهب ودونه شعورا بالواجب » .

وفى الحكومة التى يتوقف فيها كل شىء على ارادة رجل واحد قد جمع مقاليد السلطة كلها فى يده وصار يفصل فى كل كبيرة وصغيرة وفى بلاط قد امتلأ برجال الحاشية من كبار رجال القصر والصقـالبة والخصيان والجوارى كان من الممـكن أن يكثر حوك الدســـائس ، وتنظيم المؤامرات ، واستغلال النفـوذ ، واساءة استعمال الســلطة ، ولكن قوة شخصية عبد الرحمن، وصلابة ارادته ، ومضاء عزيمته ، وشدة يقظته، حالت دون ذلك وقد انعقد اجماع المؤرخين ورواة الأخبـــار العارفين على أن الناصر كان من أعظم ملوك الاسلام جلالة قدر، وسمو شأن ، وضـــخامة ملك ، وانه خليق بان يوضع الى جانب أسمى من عرفت الدنيا من الخلفاء والملوك والســلاطين والاباطرة والقياصرة ، وأنه من هـؤلاء النفر الذين لا يجود الزمان بأمثالهم الا فى الفلتات النادرة والمواقف الحاسمة .

مراجع الكتاب

المراجع القديمة :

١ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى طبعة المكتبة التجارية وتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد .

٢ ـ ازهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى طبعة لجنة النشر والتأليف .

٣ ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى طبعة مكتبة صادر ببيروت .

٤ ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٥ ـ الحلة السيراء لابن الابار تحقيق الدكتور حسين مؤنس

٦ ـ جذوة المقتبس للحميدى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٧ ـ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٨ ـ الصلة لابن بشكوال طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٩ ـ الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ٠

١٠ ـ مطمح الانفس للفتح بن خاقان (مطبعة دار السعادة بمصر) ٠

١١ ـ المطرب فى أشعار أهل المغرب لابن دحية المطبعة الأميرية بالقاهرة ٠

١٢ ـ صفة جزيرة الأندلس للحميرى مطبعة لجنة التأليف والنشر ٠

١٣ ـ المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيان وتحقيق الدكتور محمود على مكى طبع لجنة احياء التراث الاسلامى ٠

١٤ ـ مروج الذهب ٠٠٠ المسعودى ٠

المراجع الحديثة : ـ

١ ـ تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ـ للأستاذ عبد الله عنان ٠

٢ ـ تاريخ العرب فى أسبانيا للأستاذ عبد الله عنان ٠

٣ ـ الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ـ للأستاذ عبد الله عنان ٠

٤ ـ رحلة الأندلس ـ للدكتور حسين مؤنس ٠

٥ ـ تاريخ الاسلام السياسى ـ للدكتور حسن أبراهيم حسن ٠

٦ ـ المجمل فى تاريخ الأندلس ـ للأستاذ عبدالحميد العبادى

٧ ـ العرب فى أسبانيا لستانلى لين بول ـ ترجمة الأستاذ على الجارم ·

٨ ـ تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتمـــاعى ـ للدكتور على محمد حمودة ·

٩ ـ ظهر الاسلام ـ الجزء الثالث ـ للدكتور أحمد أمين ·

١٠ ـ الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ـ للدكتور أحمد هيكل ·

١١ ـ فى الأدب الأندلسى ـ للدكتور جودت الركابى ·

١٢ ـ العرب والحضارة ـ للدكتور على حسنى الخربوطلى ·

١٣ ـ قرطبة فى التاريخ الاسلامى ـ للدكتــور جودة هلال والأستاذ محمد محمود صبح

١٤ ـ عبيد الله المهـدى ـ للأســتاذ حسن ابراهيم حسن والأستاذ طه أحمد شرف ·

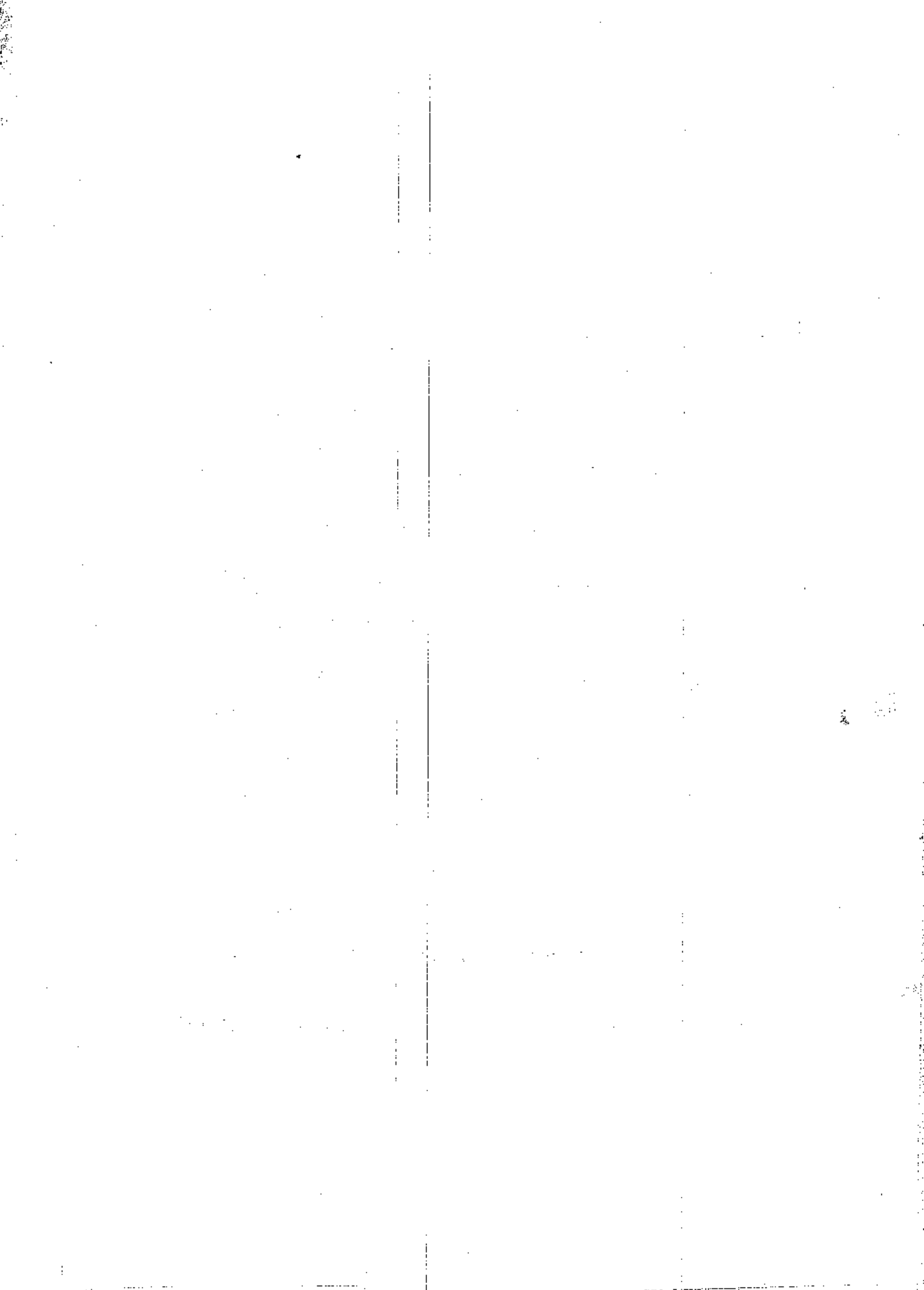
١٥ ـ دراســات فى تاريخ الأدب العـربى ـ لاغناطيوس كراتشوكوفسكى ·

مراجع أجنبية

(1) Epanish Islam, by Reinhart Dozy.

(2) L'Espagne Musulmane, par E. Levi-Provençal.

(3) The Civilization of Spain, by J.B. Irend.



فهرس

الموضوع | الصفحة